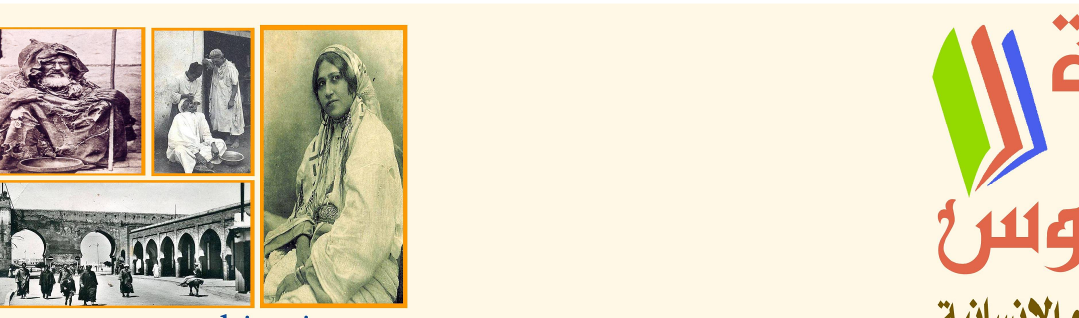


مجلة ليكسوس في التاريخ والعلوم الانسانية

مجلة علمية الكترونية محكمة

www.maroc-histoire.net
lixus.magazine@gmail.com

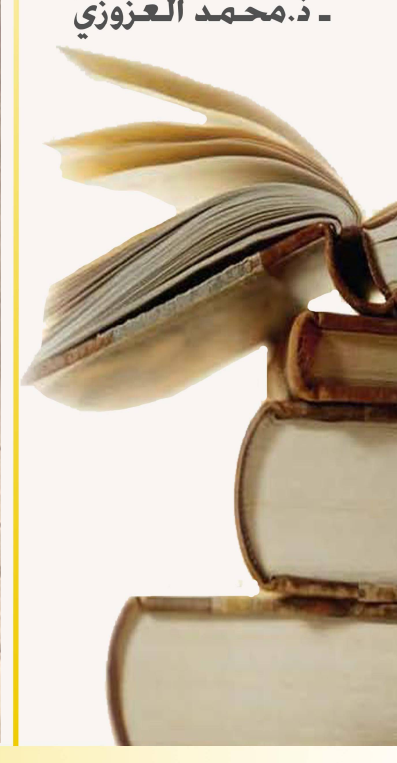
أسست بمبادرة من مجموعة الباحثين المغاربة



العدد الثاني - ماي ٢٠١٦:

المساهمون في هذا العدد:

- د.خالد بلعربي
- د.محمد بكار
- ذ.يونس كبزيز
- ذ.مشوشة سمير
- ذ.عمر عمالك
- ذ.سعيد عبيدي
- ذ.عبد الله النملي
- ذ.محمد العزوزي



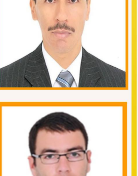
محاور العدد الثاني:

- تاريخ التعليم بالمغرب المريني - قضايا التاريخ الراهن بالجزائر
- تاريخ المجتمع الرباطي - التجارة بين بلدان المغارب
- التاريخ البحري بالمغرب - مواقع تاريخية:مدن مكناس وأسفي
- الحركات السلطانية.

تنسيق واعداد:ذ.محمد أبيهي   www.maroc-histoire.net   lixus.magazine@gmail.com



موضوعات العدد الثاني

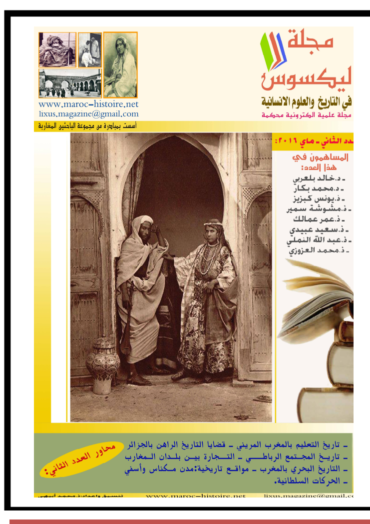



المساهمون في هذا العدد:

- د.خالد بلعربي
- د.محمد بكار
- ذ.يونس كبزيز
- ذ.مشوشة سمير
- ذ.عمر عمالك
- ذ.سعيد عبيدي
- ذ.عبد اللّه النملي
- ذ.محمد العزوزي



اشراف وتصميم:ذ.محمد أبيهي



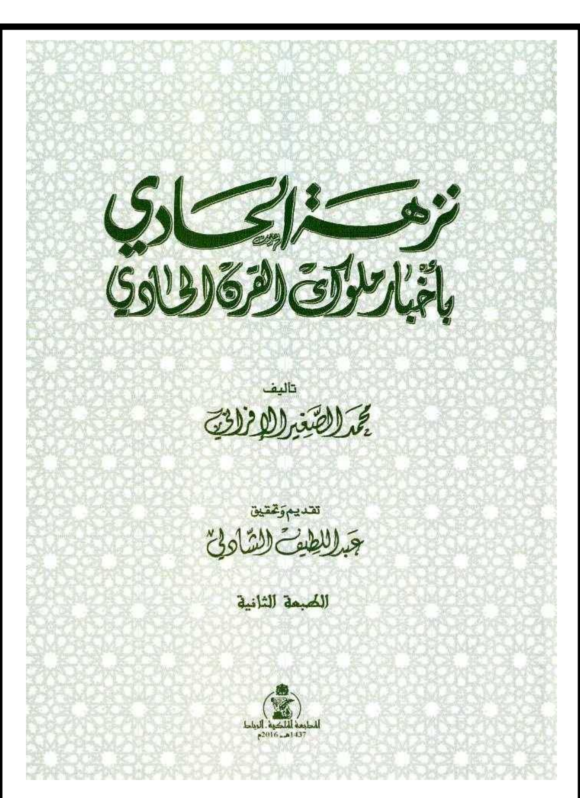


المقالات المنشورة تعبر عن آراء أصحابها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة

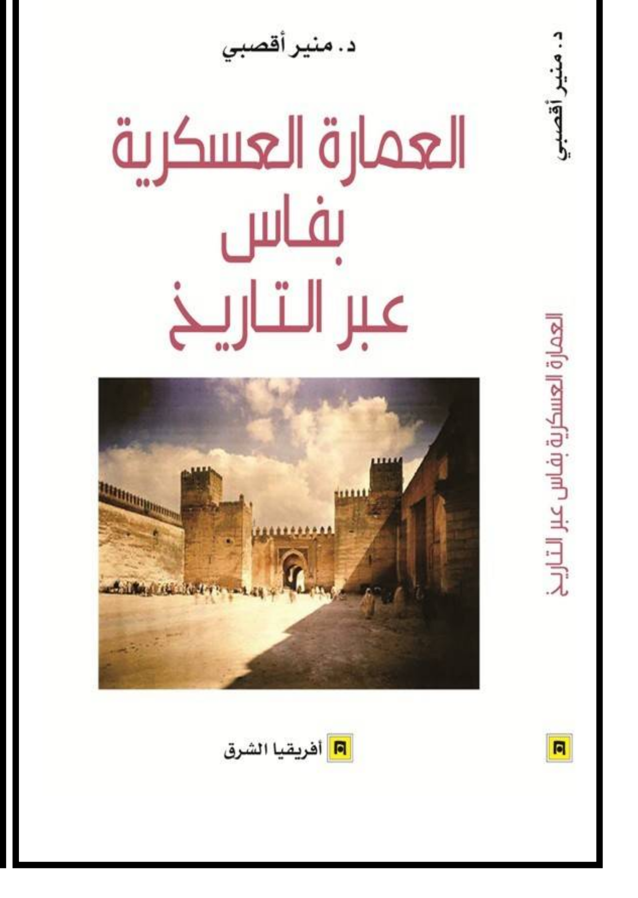


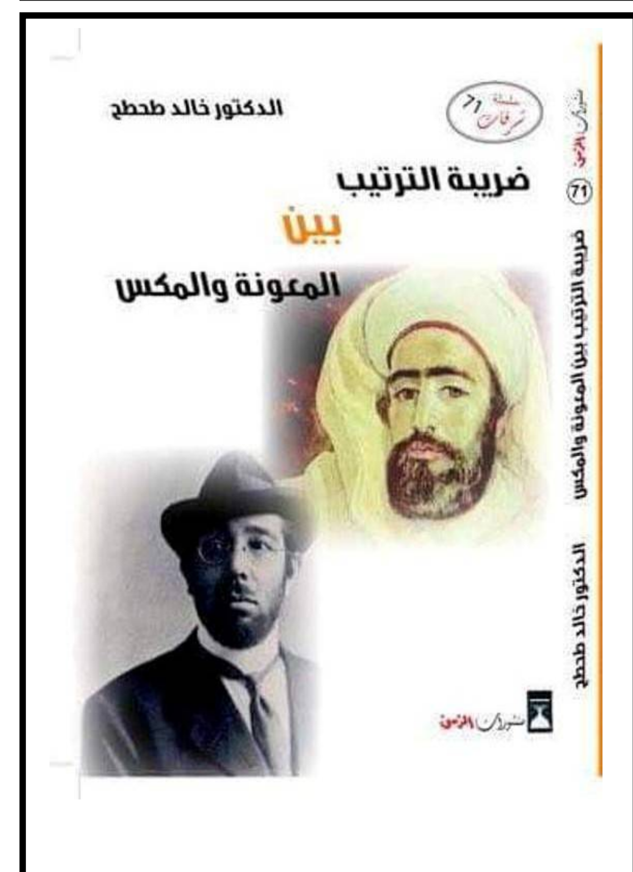


من ثمرات المطابع









كلمة الافتتاح:

تطل عليكم مجلة ليكسوس مرة أخرى في عددها الثاني على مساهمات علمية متعدد المشارب، تثير العديد من القضايا تهم تاريخ المغارب، وقد أغنى محتويات هذا العدد باحثين من المغرب والجزائر الشقيقة، وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس على كل الباحثين بالمغرب وخارجه، وذلك قصد تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين،وايمانا من المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الانسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالمغرب وخارجه.

ويسعد طاقم مجلة ليكسوس أن يقدم للقارئ الكريم موضوعات العدد الثاني، وهي عبارة عن اسهامات علمية لثلة من الباحثين في حقل الدراسات التاريخية، واشتمل هذا العدد على محاور تهم التاريخ والتراث،التي تمحورت حول جوانب من تاريخ المغرب والجزائر، كما أدرجت مقالات تهم تاريخ مدن مكناس وأسفي، وتاريخ التجارة بالمغارب من خلال رحلات مغاربية، وتاريخ الحركات السلطانية خلال القرن 19م.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية اضافة ببيلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية. وفي الختام نشكر كل من ساهم في اغناء العدد الثاني من مجلة ليكسوس، وموعدنا سيتجدد ان شاء الله في العدد الثالث من هذا المولود الالكتروني الجديد ، ليواصل اصداراته الالكترونية لتعم الفائدة جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية داخل وخارج المغرب.

ذ.محمد أبيهي
المشرف على مجلة
ليكسوس الالكترونية
lixus.magazine@gmail.com

فهرس محتويات المجلة

تاريخ المغرب المريني





الحركة العلمية بسبتة في العهد المريني



د.خالد بلعربي
قسم التاريخ،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،جامعة سيدي بلعباس
الجزائر

ليس الغرض من هذا البحث أن نقدم حول هذا الموضوع عرضا مفصلا و شاملا و إنما هدفنا هو إلقاء نظرة عامة حول الحركة العلمية بسبتة أيام الدولة المرينية و رسم الخطوط العريضة لتطورها، مع الإشارة، بالقدر الذي يسمح به مقامنا هذا إلى أشهر العلماء و إلى إنتاجهم الفكري، علنا نلمس مدى الدور الذي قامت به سبتة في ازدهار العلوم و الآداب خلال عهد حكم المرينيين المغرب الأقصى.

تعد سبتة من المدن المغربية التي تغذت بالثقافة الإسلامية منذ عصر الفتوح فتأثرت بمختلف التيارات الفكرية التي طبعت المجتمع الإسلامي بطابعها، و نما في أهلها التشبث بالإسلام و تعاليمه، و احترام العلماء و تبجيلهم[1]، و قد ظهر فيها كثير من رجال العلم، من أشهرهم القاضي عياض،

المولود سنة 476 هـــ الذي أثنى عليه المؤرخون و قالوا فيه **" لو لا القاضي عياض لما ذكر المغرب "**، كذلك نذكر الشريف الإدريسي السبتي، المتوفي سنة 562 هـــ الذي وضع أول خريطة رسم فيها العالم و أبو محمد عبد الله بن محمد بن منصور اللخمي، و أبو اسحاق إبراهيم بن أحمد البصري، و ابو العباس احمد بن محمد المتوفي سنة 639 هـــ.

و يمكن إضافة عشرات الأعلام إلى هؤلاء، ممن حفظت لنا كتب التاريخ و التراجم أسماءهم، و عاشوا قبل تأسيس الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، و يجدر بنا في هذا الصدد أن نكتفي بالإشارة إلى ميزة الحياة الفكرية بسبتة أثناء ذلك.

و أول ما يلاحظ في هذا المجال هو انصراف أغلب العلماء، في هذه الفترة، إلى العلوم الدينية. فليس من بينهم من نبغ في الرياضيات و غير ذلك، و حتى العلوم الإجتماعية فلم نعثر فيها إلا على قليل من العلماء، ثم إن اتجاه العلماء في دراسة العلوم الدينية خلال هذه الفترة لم يتأثر إلى حد بعيد بالإصلاح الديني الذي دعا إليه الموحدون و الذي يؤكد ضرورة الرجوع إلى الأصول من كتاب و سنة، و ترك الفروع، فأغلب علماء هذه الفترة أولوا أهمية كبيرة لعلوم القرآن و الحديث، و خصصوا لها معظم إنتاجهم [2]، أضف إلى ذلك فإن علماء سبتة بقيادة عياض رفضوا حكم الموحدين، بعدما رأوا فيه أنه حكم حارب المذهب المالكي و أحرق كتبه و اضطهد علماءه، و على الرغم من دخول الموحدين مدينة سبتة فإن أغلبية علمائها رفضوا تقلد مختلف الوظائف الإدارية أو القضائية سواء بسبتة أو بمراكش عاصمة الدولة [3]، و كان من شأن هذا الوضع أن يدفع بتطور الحركة الفكرية بسبتة في عصر الموحدين، إلاّ أن هذه الحركة كانت أيام الموحدين لا تزال في مرحلتها الأولى، و لم تبلغ أهمية كبرى إلا أيام الدولة المرينية.

1 ـ التعليم و المؤسسات العلمية :

إن الحديث عن الحركة العلمية بسبتة في العهد المريني يقتضي أولا التعرض إلى مراحل التعليم و مناهجه، في تلك الفترة، و إلى ذكر أهم المؤسسات العلمية و المراكز الثقافية مما له علاقة ماسة، بالإطار الذي يقع فيه تكوين الطالب، و البيئة الفكرية التي كانت تحيط به.

لقد كان التعليم منتشرا في شتى مدن الدولة المرينية و من بينها سبتة، و كان ينحصر في مرحلة أولى في تعلم الكتابة، و القراءة و حفظ القرآن، و ذلك في المدارس[4] و المساجد و الرباطات، ثم كان الطلبة يقبلون على دراسة النحو و اللغة و الأدب و الفقه، فينالون بضاعة وافرة

تمكنهم من بلوغ مستوى ثقافي لائق، و من معرفة دينهم، و الإلمام بالعلوم اللسانية، ثم كان الذين يريدون مواصلة دراستهم و التخصص في العلوم ينتقلون إلى المرحلة الأخيرة، فيدرسون العلوم الدينية من قراءات و تفسير و حديث وفقه و توحيد، و العلوم العقلية و الاجتماعية، و غيرها .بمزيد من التعمق و التفصيل و ذلك في المساجد التي اشتهرت بها و التي كانت شبه جامعات على النمط القديم[5].

و كان أولوا الامر في سبتة يولون التعليم أهمية خاصة، و يجرون الأرزاق و المنح للاساتذة و الطلبة و الموظفين بها، و يعهدون بالتدريس فيها لأشهر العلماء.

أما طريقة التعليم الجاري بها العمل آنذاك، و كانت طريقة الإلقاء و الشرح، يقوم أحد الطلبة النجباء بقراءة نص من كتاب مشهور في المادة المدروسة، و يتولى الأستاذ شرحه فقوة، حسب ما يتيسر له من غزارة حفظه وسعة اطلاعه، و الطلبة يقيدون في كرار يسهم ما يسترعي انتباههم من شرح الأستاذ و أجوبته على أسئلة الطلبة.

و امتازت طريقة التعليم في المغرب الأقصى بصفة عامة خلال العهد المريني باعتمادها، بالدرجة الأولى، على البحث و التفكير، و عدم الاكتفاء بالحفظ، و كان لذلك أثر محمود في تشحيذ الأذهان و تكوين أجيال صالحة من كبار العلماء، الذين ساهموا مساهمة كبرى في تقدم الحركة العلمية الإسلامية في عصرهم، في شتى المجالات.

2 ـ المجالات المختلفة التي شملتها الحركة العلمية:

لقد ساد العلم في مختلف حقوق المعرفة بسبتة في العهد المريني، و قد ساهمت عوامل عدة في ازدهار الحركة العلمية منها ما أبداه أمراء بني مرين من تشجعيهم للعلماء و المفكرين، و عنايتهم كذلك بإنشاء المؤسسات العلمية، أضف إلى ذلك حركة الانتقال التي كانت متاحة بين العواصم الإسلامية والي غلب عليها طابع البعثات و الرحلات العلمية والتي ساهمت في إذكاء روح النشاط العلمي، هذا دون أن ننسى دور حركة هجرة علماء الأندلس إلى المغرب الأقصى و استقرارهم في بعض مدنها الساحلية كما هو بالنسبة لسبتة و الذي كان له دور فعال في تطور الحركة العلمية.[7]

صنف العلماء السبتيون مؤلفات لا تعد و لا تحصى في مختلف علوم المعرفة كالعلوم الدينية و العلوم العربية، و العلوم الإنسانية، و العلوم الرياضية، و الطبيعية، و كان أهل سبتة كثير و الإقبال على العلم، سبّاقون في ميدان العلوم، حريصين على اكتساب المعارف و تطوير الحركة

العلمية و ترقيتها بالمدينة و لم تكن المرأة السبتية في العهد المريني بمعزل عن ذلك النشاط العلمي الذي قام به الرجل السبتي، فكانت منهن المعلمة، و العاملة، و ما أشبه ذلك و نحن هنا لا يمكن أن نلج في دور المرأة السبتية في العهد المريني لأن الموضوع وحده بحث قائم بذاته.

فيما يتعلق بالحركة اللغوية النحوية، فقد ازدادت فعاليتها بسبتة في العهد المريني الذي تميز بنمو الحركة و ازدهارها و الابتعاد عن الإزدواج اللغوي الذي شجعه الموحدون لنشر دعوتهم بإستعمال اللسان البربري إلى جانب اللغة العربية [8]، و قد أشار ابن خلدون إلى المجالس اللغوية التي كانت تقام بين الأدباء و علماء اللغة و النحاة للتأكد من سلامة اللسان و صفاته و خلوّه من التلحين و التصحيف[9].

و من بين أهم العوامل التي ساعدت على تطور الحركة اللغوية و النحوية هي تلك الحركة الدؤوبة التي عرفتها العلوم اللسانية و فروعها، فقد كانت الأبحاث و المصنفات خلال هذا العهد تدور كلها حول علوم الدّين و لاسيما من الفقه و الحديث و التفسير فقد كان الفقهاء السبتيون يختصرون و يفسرون يعلقون و ينظمون الأراجيز و يشرحون الكتب الصعبة، برزت خلال هذا العهد طائفة من اللغويين و النحاة من أعلامها المشهورين من بينهم **محمد بن إبراهيم بن محمد السبتي** [10] (ت 695 هـــ) درس على يد ابن ابي الربيع، و اختصر شرح الإيضاح له كان من بين أشهر النحاة. و كذلك محمد بن عمر بن محمد عمر[11] (ولد بسبتة سنة 657 هـــ) كان من أهل المعرفة بعلم القراءات، و العربية و علم البيان و الآداب و العروض و القافية من تأليفه الإضاءات و الإنارات في البديع المسماة بإيراد المرتع و المريع لرائد التسجيع و الرصيع و **" وصل القوادم بالحوافي في ذكر أمثلة القوافي "** شرح فيه كتاب القوافي لشيخه أبي الحسن، و جزء مختصر في العروض، و تقييد على كتاب سيبويه.

كما تصدرت علوم الأدب مجالات النشاط العقلي في سبتة المرينية، فقد كان الأدب نثرا و شعرا محط إهتمام و إحترام كل الطبقات، ففي مجال الشعر برز العديد من الشعراء الذين كان لهم باع طويل في تطور الحركة العلمية بسبتة خلال هذا العهد، و كان لموقع سبتة و طبيعتها الجميلة أثر عميق في تفجير مواهبهم و شحذ قرائحهم، و من أبرز شعراء هذا العصر **مالك ابن المرحل المصمودي السبتي** (ت 699 هـــ) الذي كان "شاعر المغرب " [12] أخذ العلم على جماعة من العلماء كأحمد بن علي ابن الفحام، و ابا بكر بن عبد الرحمن بن علي، و أبا النعيم رضوان، و أبا

الحسن بن الدياج و محمد ابن عبد الملك، و عن الفقيه اليزناسني، من تآليفه المشهورة "الوسيلة الكبرى، المرجو نفعها في الدنيا و الآخر "، و أرجوزته المسماة بـــ " سلك المنحل، لمالك ابن المرحل "، و القصيدة الطويلة المسماة بـــ " التبيين و التبصير في نظم كتاب التسيير" و لا شك أن المنظر الرائق لمدينة سبتة جعله يصفها قائلا :

أخطر على سبتة و انظر إلى ۞ جمالها تصب إلى حسنه
كأنهـــا عود عناء وقـــد ۞ ألقي في البحر على بطنه

و من الشعراء السبتيين الذين برزوا خلال هذا العصر **عبد الرحمان بن عبد الله العزفي اللخمي السبتي** [13] (ولد سنة 685 هـــ، و توفي سنة 717هـــ) من تآليفه "الإشادة في المشتهرين من المتأخرين بالإجادة، و مما قاله شعرا هذه الأبيات.

من لاح حسن طباء القصور ۞ أقرت طباء الفلا بالقصور
و من للطباء بتلـــــك العيون ۞ و تلك الثعور و ذاك الفتور
أتعجب من ميل تلك الغصون ۞ و قد أتقلتها ثمار الصدور
و قد طربـــت لغنــــــاء الحلــــــــى ۞ فباحت بمكنون ما في الضمير

وكان أخوه **أحمد بن عبد الله** [14] (ت 780هـــ) كذلك شاعرا فذا، ففي وصفة لسبتة و حبها إليها يقول :

لـــي فـــي سبتـــــة سك ۞ حبـــه أضلعــــــي ســـن
فـــهـــو يـــــــــزداد حدة ۞ مـــع إبلــــه الزمـــن

كما كان **محمد بن معمر بن مهدي بن عمر** [15] (ت 657 هـــ) شاعرا بارعا فمما قاله في البحر و قد انبسط عليه ضوء القمر ليلة القدر.

أنظر إلى البدر قـــد مدّت أشعتـــه۞ على خضارة حتى أبيض أزرقه
و الريح قد صنعت درعا مساميرها ۞حبات ماء يروق العين رونقه

و كان إهتمام السبتيين بعلوم الدين كبيرا، فقد لقيت علوم القرآن و السنة من تفسير و قراءات و حديث و فقه و تصوف إهتمام بني مرين، فبنوا لهذا الغرض المساجد و الرباطات التي كانت مجالا خصبا لإزدهار علوم الدين، و قد اتجهت الحياة الدينية إلى دراسة الأحاديث و يبدو أن ذلك راجع إلى نشأة دولتهم التي قامت على مبدأ السنة و اهتمامها بأصول المذهب المالكي [16] و

فروعه فمن الذين اشتغلوا بعلم الحديث أتذكر على سبيل المثال لا الحصر **عبد المهيمن بن محمد الحضرمي السبتي**[17].

(ت 749 هـ) كان متضلعا في علم الحديث، و ضبطه، و معرفة رجاله، من شيوخه أبو جعفر بن الزبير و الإمام أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني، كما برز في هذا المجال **يوسف بن موسى بن عيسى الحسن السبتي** [18] (توفي آواخر 700 هـ) صنف كتابين على رسالة الشيخ أبي محمد بن أبي زيد، سماها الإفادة الكبرى و الصغرى مال فيهما إلى سرد الأثر، أخذ عنه الخطيب أبي عبد الصوفي الغماري، و أبو عبد الرحمن الجزولي و أبو الحسن الغازي أما محمد بن عمر بن عمر (ولد نبية 657 هـ) سبتة فقد قام بتأليف "ترجمان التراجم في إبداء وجه مناسبة تراجم صحيح البخاري و كذلك " السنن الأبين، في السند المعنعن " و " المقدمة المعرفة، لعلو المسافة و الصفة " و "المحاكمة بين البخاري و مسلم" من شيوخه أبي الحسن بن أبي الربيع، و علي بن محمد الكتامي ابن الخضار

و أحمد بن محمد ابن شلبطور و غيرهم، أما الفقه فإنه يبدو للباحث أن معظم فقهاء هذا العصر قد راج كلامهم على الفقه الخالص من فروع المذهب المالكي، و قد نتج عن اهتمام المرنيين بعلماء الدين أن زاد عددهم و تكاثر و ظهر منهم أعلام في الفقه بسبتة كانت لهم شهوتهم و سمعتهم في هذا العصر نذكر منهم **عبد الله بن محمد بن عيسى التميمي السبتي** [20] و **علي بن محمد الشاري الغافقي السبتي** [21] (ت 649 هـ)، و **أحمد بن محمد بن محمد الحسني السبتي** (ت 737 هـ)[22]. و **محمد بن عبيد الله الأنصاري أبو عبد الله** (ت 706 هـ)[23] و **محمد بن علي بن هانئ السبتي (ت 733 هـ)** هؤلاء النماذج من الفقهاء هم صورة ساطعة عما وصلت إليه حركة الفقه خلال هذه الفترة.

إن هذه الآثار العلمية التي تركها علماء سبتة في العلوم الدينية تدل دلالة واضحة عن عمق التفكير الذي تميزوا به وسعة التحصيل و غزارة العلم.

أما بالنسبة لعلم التاريخ فقد حظي هو الآخر بعناية كبيرة من قبل العلماء السبتيين، فازدهرت كتابته ازدهار يتناسب مع مقام بني مرين العلمي و طموحهم السياسي و العسكري، ظهر في سبتة خلال هذه الفترة **محمد بن يحي العزفي اللخمي السبتي** [25] الذي كتب عن فاس و

ملوكها، و ذلك **أبو عبد الله محمد بن أبي بكر عبد المهيمن الحضري** [26] (ت 787 هـــ) الذي ألف كتاب "الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء و الصلحاء و العباد"

و بعد هذا العرض لا يجد الباحث إلا أن يقول أن الحركة العلمية بسبتة خلال العهد المريني بلغت مرحلة جد متطورة في جميع حقول المعرفة، و ما الأسماء البارزة للإعلام الذين ذكرناهم في هذه المداخلة إلا دليل على تقدم العلوم خلال هذا العصر، فأصبحت سبتة تضيء رحاب المغرب بنور المعرفة إلى جانب فاس إذ كانت مركز إشعاع فكري و حضاري يحق بنا أن نفتخر به و بما حققه من رقي و ازدهار.

الهوامش :

1. بلعربي خالد، مركز سبتة الحضاري و دوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية، مجلة حوليات المؤرخ، العدد 7، السنة 1996، الجزائر، ص 17.
2. بلعربي خالد، العلاقات الثقافية بين المغربين الأوسط و الأقصى ما بين القرنيين السابع و التاسع الهجريين مجلة الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، العدد 3، السنة 2004، ص 171.
3. إبراهيم حركات، الحياة الدينية في العهد المريني، مجلة البحث العلمي، العدد 29-30، السنة 16، الرباط 1979، ص 119.
4. أحد أعيان مدينة سبتة مدرسة بها و هو أبو الحسن الشاري السبتي (ت 649 هـ) و أضحت تنسب إليه و كانت مركز هام للتعليم، ينظر حسن عزوزي، التأليف في القراءات القرآنية و خصائصه بالمغرب و الأندلس في القرن 8 هـ / 14 م ضمن أعمال الملتقى الدولي حول المراكز الثقافية في المغرب الإسلامي، مجلة الحضارة الإسلامية، عدد خاص 1993 وهران. ص 239.
5. Kably (N), société, pouvoir et religion au Maroc à la fin du moyen âge (XIV-XV^{e} siècle), Paris – maison neuve et larose 1986, P.38.
6. محمد المنوني، نشاط الرياضيات في المغرب الوسيط (عصر بني مرين) مجلة المناهل العدد 33 السنة ديسمبر 1985. ص87.
7. محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع و الثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ط$_1$ 1987، ص75.
8. محمد المنوني، ورقات من الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط، ص 258-259.
9. ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة و النشر، بيروت 1968، ص 1063.
10. ابن القاضي المكناسي، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا دار الكتب العلمية بيروت ط$_1$، 1423 هـ/2002م، ص 160، أنظر كذلك أحمد بابا التنبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، طبع على هامش الديباج المذهب لأبن فرحون، القاهرة 1953، ص 327.
11. ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس، (القسم الأول)، دار المنصور للطباعة و الوراقة، الرباط 1973، ص ص 289 – 290.
12. المصدر نفسه، ص ص 327 – 328.
13. المصدر نفسه (القسم الثاني ع-ي) ص ص 397 – 398.

14. ابن الخطيب لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج1 دار المعارف مصر 1955، ص 286.
15. بن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 290.
16. ابراهيم حركات، الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب، مجلة الأصالة، العدد 26 – جويلية – أوت 1975 مطبعة البعث قسنطينة، ص 184.
17. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، القسم الثاني ص 446، وكذلك في درة المجال، ص 368.
18. ابن القاضي، درة الحجال، ص 452.
19. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 291.
20. المصدر نفسه، ص 428.
21. المصدر نفسه، ص 485.
22. المصدر نفسه، ص 134.
23. ابن القاضي، درة الحجال، ص 319.
24. المصدر نفسه، ص 193.
25. ابن القاضي، جذوة الاقتباس، ص 432.
26. ابن القاضي، درة الحجال، ص 341.

قضايا التاريخ الراهن







الهوية الوطنية بين السياسة الاستعمارية والممارسات الإقصائية بعد الاستقلال

د.محمد بكارد
أستاذ جامعي
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف
قسم التاريخ

مقدمة:

اتضحت السياسة الفرنسية في الجزائر ما بين 1830-1962 في ما تعلق بمستقبل الجزائريين وهويتهم الوطنية. وكانت القوانين والمخططات إنما ترمي إلى جرد الشعب من تقاليده وعاداته ودينه بصورة تجعل منه مجتمعا يسهل انقياده حسب ما تمليه الحركة الاستعمارية الحديثة، وتجعل حركة الاستيطان ناجحة في هذا البلد الغني بإمكانياته المادية والبشرية. وبعد كفاح مرير مع الاستعمار وجد الجزائريون أنفسهم في مأزق بعد الاستقلال أين عكرت مصطلحات جديدة صفوة الحياة كالمحسوبية، والرداءة، والتسيير الأحادي لأمور الرعية بشكل فتح التاب أمام الانتهازيين الذين استفادوا من حقوق المواطنة، بينما وجد الشباب نفسه غريبا في بلده، مجردا من حق التمتع بالحياة الكريمة بفعل الفوارق الاجتماعية وانتشار البطالة، ومجرد من الحريات السياسية بحكم تسلط الحزب الواحد على الساحة.

من هذه الحقيقة جاءت إشكالية المداخلة: الهوية الوطنية بين السياسة الاستعمارية والممارسات الإقصائية بعد الاستقلال، من أجل توضيح بعد مشكل الهوية من قبل استعمار الأمس من جهة، ومن قبل السلطة الجزائرية المغيبة للعنصر الفاعل داخل المجتمع طيلة عقود كاملة.

1- الاستعمار الفرنسي وسياسة سلخ الشعب الجزائري عن هويته ومقوماته:

اعتبرت فرنسا الجزائر مقاطعة فرنسية وراء البحر اعتبارا من عام 1884 طبقا لقرار الجمعية الفرنسية—البرلمان- وعليه فإن سكان الجزائر اعتبروا فرنسيين منذ ذلك التاريخ، ولكن الصحيح أن فرنسا اعتبرت الجزائر فرنسية منذ 1830 تاريخ وصول قواتها إلى الشواطئ الجزائرية واحتلالها الجزائر[1]. ولتجسيد المشروع الاستيطاني والقضاء على الهوية الوطنية، قامت الإدارة الاستعمارية بتغيير أسماء الجزائريين وتجريدها من أصلها العربي والإسلامي حتى أن بعض الأسماء جاءت غريبة ومنبوذة النطق وحملت معاني الاحتقار، حيث أخذت أسماء مشوهة في الغالب. وقد قامت السلطة الفرنسية بعملية إحصاء واسعة لسكان الجزائر وسجلت أسماءهم وأوجدت للجزائريين أسماء جديدة، وهو ما اعتبر ذروة العمل على مسخ الشخصية الجزائرية...[2]. وبالنظر إلى القوانين الفرنسية الصادرة منذ الاحتلال، فإن المواطن الجزائري المستعمر كان فرنسيا حسب ما جاء به القانون الإمبراطوري المشرع يوم 5 ماي 1865، وتعزز هذا الطرح الإدماجي بصدور قانون مجلس الشيوخ يوم 14 جويلية 1865 والذي جعل من الأهلي الجزائري المسلم مواطنا فرنسيا وله الحق في الاحتفاظ بالأحوال الشخصية. لقد اعتمد الاستعمار الفرنسي على البحوث العلمية للوصول إلى مبتغاه المشين لتكريس الاستيطان، وسلخ المجتمع الجزائري من مقوماته الأساسية، فمثلا كانت رغبة الحكومة في رعاية البحوث الأنثروبولوجية جزء من سياسة عامة دعمتها وزارة المستعمرات لجمع المزيد من المعلومات الموثوق بها عن التنظيم الاجتماعي للسكان، ونظم معتقداتهم، حيث تعاونت الإدارة الاستعمارية مع الأنثروبولوجيين في هذه المرحلة على غرس إيديولوجيا الاستعمار. وكان الهدف الرئيسي هو ضبط السكان الوطنيين وقمعهم واستغلالهم[3].

لقد حرصت فرنسا من أجل تعزيز وتوطيد تواجدها الاستعماري السياسي والفكري في الجزائر على القضاء على اللغة العربية لسان حال المجتمع وثقافته وإمامتها، لتقطع كل أواصر التماسك بين أبناء هذا اللسان، وتتبني لهم بذلك تاريخا ممسوخا مشوها، لا أصالة له ولا وحدة له[4]. وهذا إنما يندرج ضمن نطاق ممارسات الاستعمار لربط المستعمر بالاستعمار كون أن اللغة

هي مخزون المجتمع من القيم والثقافة والتاريخ. إنها الإرث الحضاري الإنساني...[5]. إن اللغة العربية قامت بمهمتها حتى ولو اتخذت عبارات ما اصطلح عليه باللهجة المحلية عبر ربوع الوطن كأداة مهمة في تواصل الجزائريين، ووحدتهم أيام الاستعمار بشكل لم تتمكن فيه لغة المستعمر من الثبات خاصة في الأرياف والمداشر الجزائرية. وعليه فإن سياسة الاستعمار وإن تمكنت من استقطاب البعض من النخبة المفرنسة، فإنها فشلت في ترويض الأغلبية وهذا ما كان سببا كافيا في انهيار قيم المستعمر على أرض الواقع. ومن هذا المنظور فإن إحياء تلك المقومات الجوهرية للهوية الوطنية قد صاحبت المقاصد السامية للزوايا في إرساء تلك المنظومة القيمية وذلك بتنشئة الفرد تربويا وتعزيز قيم الوطنية عنده باعتبارها جملة من المشكلات التي لا يمكن التنازل عنها[6].

ترجم خطاب الزوايا لغة التجديد التي صاحبت في الجزائر خطوات التنصير والتجنيس المعتمدة في تلك الفترة، حيث قامت بمقاومة الترويج للنصرانية والقضاء على الإسلام، مما اعتبره المؤرخون لحركة تطور الزوايا بمثابة حصنا منيعا للقيم العقائدية التي جمعت بين الوسيلة والغاية لقيم الهوية الوطنية خارج الزوايا في ثقافة المحتل وعقيدته[7]. وبالتوازي مع فرنسة الهوية، قامت السلطات الفرنسية بإلغاء التعليم الأصلي العربي، وفرضت اللغة الفرنسية في المعاهد التعليمية والإدارة إتماما لدمج الشعب الجزائري في المنظومة الفرنسية[8].

كانت استراتيجية فرنسا منذ قيامها باحتلال الجزائر عام 1830 حتى عام 1954، إنما ترتكز على هدفين رئيسيين بصرف النظر عن ما ذكر سلفا، الهدف الأول: هو مقاومة أية فكرة تعارض وجود فرنسا أو أية حركة قومية تحرض الشعب الجزائري ضد حكم فرنسا أو أية حركة تمهد خطوات وحدوية بين أقطار المغرب العربي. أما الهدف الثاني: فتمثل في الإبقاء على تجزئة الشعب الجزائري مع تقسيمه إلى طائفتين: إحداهما تنتسب إلى فرنسا وتحمل جنسيتها، والثانية مذبذبة لم تبلغ بعد- في نظر الدولة الفرنسية- مرتبة الشرف لتحظى بالرعوية الفرنسية !!!. أي شرف تحلم به فرنسا وهي تقتل وتحرق الجزائريين وتهتك الأعراض عنوة من غير ضمير يردع. ولا أخلاق تمنع[9]!!.

لقد كانت الجزائر في واقع الأمر ليست فرنسية، ولم تكن في أي يوم من الأيام فرنسية، بل هي حقا بلدا يستعمره ويضطهده المستعمرون الفرنسيون[10]!. ولولا المجهودات التي بذلها الإصلاحيون في الجزائر وعلى رأسهم شيوخ حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين عملوا

على استرجاع الهوية وتكريس عروبة وإسلامية الجزائر لاستكملت فرنسا كل خطوات المسخ[11]. إن محاولة استلاب الشخصية الجزائرية ضمن سياسة الغزو والإدماج قد حمل الزوايا في خطابها الديني إلى إنشاء تلك المدارس القرآنية التي أحدثت ثورة على الاحتلال الفرنسي، وأجهضت خططه الاستدمارية الرامية إلى تغريب المجتمع الجزائري بشتى الطرق. وقد ساهت جمعية العلماء المسلمين على لسان العلامة عبد الحميد بن باديس إلى إفشال كل مشروع استعماري يسعى إلى طمس الهوية الوطنية، ومن هذا المنظور قد تعايشت كل عوامل الثورة وعناصرها التحريرية ليتحرر الشعب الجزائري من مرحلة العبودية إلى مرحلة السيادة[12].

وهكذا فالاستراتيجية الاستعمارية (القديمة والمتجددة) بإمكانها أن تتخلى عن عشرات الاستقلالات للجنس، ولا تتخلى عن استقلال واحد للهوية لأي قطر مهم من مستعمراتها السابقة. وإذا كان هذا القطر في حجم الجزائر، بوابة إفريقيا (على حد تعبير رجال السياسة الفرنسيين ومن بينهم ألان دوكووزيل الفرنكوفوني)، الذين رؤوا جميعا أن الجزائر لو استقلت شخصيتها الثقافية عن فرنسا استقلالا كاملا وحقيقيا (وخاصة في مجال اللغة)، فهذا يعني فقدان المستعمرة، وهو الأمر الذي ضلت فرنسا تراهن على عدم حصوله، وما تزال تأمل حتى هذه اللحظة![13].

لقد تضاربت آراء النخبة الجزائرية ذات التعليم الفرنسي ما بين اتباع سياسة الإدماج في البداية، لتظهر بعد ذلك نخبة من ذات التعليم تتبع سياسة الاندماج للوصول إلى المواطنة الفرنسية مع الاحتفاظ بالأحوال الشخصية. كانت مطالب النخبة المفرنسة تتمثل في الحصول على حق المواطنة الفرنسية مع الإبقاء على الأحوال الشخصية، وخاصة المساواة في الحقوق مع الفرنسيين. لكن الشيء الملاحظ أن المعمرين لم يقبلوا أبدا حصول الأهالي على الحقوق نفسها معهم، وإلا ما هو معنى المجتمع الكولونيالي بدون امتيازات وعنصرية[14]. وعلى هذا الأساس صنف الدكتور أحمد بن نعمان الجزائر ضمن نطاق الدول المستعمرة المستفيدة من استقلال الهوية دون الجنسية قبل 1962، شأنها شأن فلسطين حاليا[15].

لقد وجدنا أن جانب تحفيز التلاميذ والطلاب الجزائريين على طلب العلم والمعرفة رغم الفوارق الموجودة بينهم وبين أبناء المستعمر كان موجودا مع مطلع القرن العشرين بدعم من حركة الإصلاح المعروفة قبل جمعية العلماء والتي تزعمها الشيخ ابن الموهوب والشيخ سماتي في

قسنطينة. ففي هذه الفترة عرفت قسنطينة بدعم المثقفين صغار التلاميذ وتشجيعهم، بمنحهم يد المساعدة وحثهم على الجدّ في طلب العلم حتى في مدارس المستعمر. وأنشودة الشاعر الإصلاحي ابن الموهوب تؤكد هذا، وهي الأنشودة نفسها التي تغنى بها التلاميذ في مدارس المدينة التابعة للحركة الإصلاحية، والتي اقتطفنا منها:

يا أيها الأبناء الصغار أنتم لنا نعم الثمار

فعمروا المـــدارس وجـــــانبوا الأبالس[16].

إذا كانت هذه المجهودات قد كللت بظهور نخبتين أيام الاستعمار: نخبة مفرنسة تتطلع بربط البلاد والعباد بالمستعمر، فإن نخبة أخرى إصلاحية معربة تحركت سنة 1931، حيث تمكنت بفضل مدارسها ومعاهدها المنتشرة عبر الوطن من الحفاظ على هوية المجتمع الجزائري، وترسيخ قيمه عبر المناهج التربوية المتبعة من شيوخ جمعية العلماء المسلمين. والحقيقة وبعبارة أخرى إنما تنحصر في أن بقاء استقلال الشخصية لأي شعب في الدنيا كفيل باسترجاع استقلال الجنسية ولو بعد ضياعها، مهما طال الزمن مثل حال الجزائر التي ضلت مستقلة الشخصية تحت الاحتلال وتكاد اليوم أن تصبح مهددة في مقومات هذه الشخصية بعد (الاستقلال)[17].

ومن حيث البرامج كانت المدرسة الكولونيالية تضع فرنسا في صورة الأم الساعية لاحتضان الأبناء في المتروبول وما وراء البحر. كانت تركز على تدريس الحضارة، والثقافة، والإنسانية الفرنسية المزعومة لاحتواء الجميع داخل امبراطوريتها[18]. إنه الهدف الذي كانت تقصده فرنسا وتعمل من أجل إرسائه في مثل هذه الدوائر التعليمية المشبوهة حتى تشوق الطفل والشاب الجزائري البريء فتحول حلمه الساذج إلى هواجس جنونية تدفع به إلى الارتباط أكثر بالصورة الجميلة والوردية للثقافة التي قدمت له عن فرنسا[19].

2- الجزائر والوصاية الفرنسية بعد الاستقلال:

لقد استطاع البعض من الجزائريين التدرج في الدراسة إلى غاية حصولهم على شهادات جامعية عليا في مجال الطب والصيدلانية والمحاماة، حتى أن البعض منهم تحصل على وظائف داخل الإدارة الاستعمارية. لقد تحزب هؤلاء من أجل الحصول على المواطنة الفرنسية مثل اليهود الذين نالوا هذا الحق بموجب مرسوم كريميو عام 1870. وسار على هذا النهج كل من الصيدلي فرحات عباس، والدكتور محمد الصالح بن جلول، وكان كلاهما يراهن على حصول الجزائريين على

الجنسية الفرنسية مع الاحتفاظ بالمقومات والشخصية الجزائرية لنيل الحقوق والمساواة مع الفرنسيين. لهذا يمكن القول أنه إذا كان النظام الكولونيالي من حيث أسسه ومنطلقاته هو نفسه لا يختلف في كل البلدان التي تعرضت له، فإن له بالجزائر مميزات وخصائص عظيمة، ذلك أنها عاشت وشهدت لمدة 132 سنة نوعا آخر خاصا من الاستعمار الاستيطاني ينتهج سياسة أرادها بالقوة محققة "لاستيعاب الجزائريين إقليميا وإداريا واقتصاديا وثقافيا على الشاكلة الفرنسية"[20]. ويعود السبب الرئيسي في كل هذا الانسلاخ عموما إلى سياسة التعليم المنتهجة من قبل الاستعمار، ومن قبل من سار على خطاه بعد تحصل الجزائر على الحرية. إن استقلال الشخصية لن يتم بدون استقلال للثقافة في عمومياتها وثوابتها، ومكوناتها الأساسية. وبعبارة واضحة بالنسبة للجزائر...[21].

إن مشكل الثقافة واللغة الفرنسية والهوية المبتورة والارتباط بما خلفه الاستعمار الفرنسي في الجزائر، هي محاور جوهرية في مسار الشعوب، حيث تعرضت الجزائر خلال فترة الاستعمار إلى ممارسات لا حضارية من قبل الاستعمار الفرنسي الذي نصب نفسه وصيا على شعب أعزل، وحاول غرس مبادئ القيم الغربية لتجريد الجزائريين من هويتهم العربية والإسلامية. وهو الشيء الذي راهن عليه الجنرال شارل ديغول الذي قال بالحرف الواحد في هذا المجال:"...وهل يعني هذا أننا إذا تركناهم يحكمون أنفسهم يترتب علينا التخلي عنهم بعيدين عن أعيننا وقلوبنا، قطعا لا فالواجب يقتضي منا مساعدتهم لأنهم يتكلمون لغتنا ويتقاسمون معنا ثقافتنا"[22].

لقد تخلت بعض البلدان المستعمرة حتى في إفريقيا عن لغة فرنسا كرواندا مثلا، هذه الدولة الضعيفة نجحت في ظرف قصير في لم شمل سكانها رغم التناحر والحرب الأهلية، وأتت استراتيجية التحول نحو الانجليزية أكلها في السنوات الأخيرة. ولكن الذي يضير المجتمع ويهدد كيانه ووحدته من الأساس هو منافسة العموميات الثقافية من قبل بعض الخصوصيات المحلية أو محاولة إحلال هذه محل تلك، كإحلال لغة أو لهجة محلية أو جهوية محل لغة وطنية عامة ذات تراث مكتوب وعريق! فهنا يكمن الخطر الداهم، حيث تتجاوز الخصوصيات الثقافية حدودها لتنقلب إلى ضدها، فتصبح عامل لهدم وتحطيم وحدة المجتمع، وطمس معامل هويته بدلا من أن تظل عاملا معبرا عن التنوع الجزئي داخل الوحدة الكلية الشاملة بعمومياتها أو ثوابتها الثقافية لكل أفراد المجتمع الذي يقرون رسميا وظاهريا أنهم يمثلون أمة واحدة أو شعبا واحدا على الأقل[23]!.

هكذا يتبين لنا أن فرنسا لن تتخل عن الجزائر ليس طمعا في العودة مجددا عن طريق القوة العسكرية، وإنما كدولة وصية على هذا الشعب مادامت البعض من قيمها الثقافية موجودة، وهناك من يعول عليها في تسيير البلاد وكأنها موجودة. ومقابل هذا التسلط المكشوف، لم تضع الحكومات الجزائرية المتعاقبة استراتيجية واضحة لتخطي هذا الإشكال، حيث يقتضي هذا الأمر وبسرعة الاستعانة بالخبراء حتى لا نقع في الأخطاء نفسها التي تمخض عنها مؤتمر طرابلس في جوان 1962، حيث اتخذت تدابير وقرارات كادت أن تجر البلد في حرب أهلية بعد الاستقلال مباشرة.

وإدراكا من قادة الإليزي لهذه الاستراتيجية (الشخصانية) التي يطبقونها في الداخل (عندهم)، ويخربونها في الخارج (عندنا)...طفقوا يخططون-منذ خروج عساكرهم البيض من الديار-للحيلولة دون استكمال مقومات استقلال الشخصية الوطنية للجزائر، ولقد ساعدتهم في ذلك ظروف ما بعد الحرب، التي جعلت بعض (المفاعيل) بالأمس فاعلين في أنفسهم، لصالح غيرهم (في غياب الشهداء!!). وكاد يحقق هؤلاء (المفاعيل الفاعلين) في أنفسهم من مسخ لمقومات الشخصية في فترة (الاستحلال) ما عجز عن تحقيقه الاحتلال المباشر طوال وجوده المادي في البلاد[24]!!.

3- الجزائري ومشكل الهوية بعد الاستقلال:

إن عقلية الجزائري بعد الاستقلال تتلخص في عدة مكونات قيمية ومعيارية متناقضة ومتضاربة نتيجة التراكمات السابق ذكرها والمتعلقة بالاستعمار والتسيير بعد الاستقلال. وتتجلى وتتجسد هذه المتناقضات في مجموعة من السلوكات والمواقف والاتجاهات المشوشة التي لا تستطيع استيعاب العالم المعاصر وحركته السريعة في كليته، وإنما في جزيئياته[25]. وهذا يجعلنا نتحدث عن ثلاثة أنماط من الاستجابات التي تجسد صلب العقلية الجزائرية. فمن جهة تعكس التشبث بالهوية الأولية القائمة على الاستمداد من الأصول الثابتة كالإثنية والمحل، باعتبارهما مصدرين للقوة والدعم. والثاني يعكس بداهة التكيف والتأقلم مع المستجدات والفرص، فالحياة بالنسبة للجزائري مثل لعبة الشطرنج يكون هو قطعها ومن يلعبها في نفس الوقت، وهو يدرك هذا، لذا فلكل وضعية هناك استجابة نمطية جاهزة[26]. وبين الأول والثاني يقع النمط الثالث الذي يعكس نزعة التوفيق بين المتناقضات، وهي استجابات يمكننا تصنيفها ضمن نوع من "الانتهازية الاستراتيجية"[27].

وحتى لا يضيع الجزائري في متاهات تجعله مضطربا في هويته في عز الاستقلال، لا بد من اتخاذ التدابير اللازمة حتى يصبح متماسكا في شخصيته، ومتمسكا مع غيره بما وفرته البلاد له من انتماء، وحقوق يشعر بهما كإشعاع يصقل هويته. وعلق مصطفى الأشرف عن هذا لما ذكر:" ولئن كانت هذه الأزمة قد حطمت أحلامنا وآمالنا في مستقبل باسم، فمن واجبنا على الأقل أن نعمل لإنقاذ الحاضر من الكارثة. ولعله من السابق لأوانه أن نحكم على المستقبل"[28]. لقد أصبح لزاما علينا، أمام هذه الأخطار وهذا التنكر للمبادئ، أن نبادر إلى تذليل العقبات وبذل الدعم للعناصر الواعية التي تشكل الطليعة، وذلك بحمايتها من الوسط المتعفن الهجين الذي نعيش فيه[29].

أصبح الشباب الجزائري اليوم يتطلع لاكتساب هوية أخرى بشتى الطرق، كل الآمال معلقة على الهجرة إلى فرنسا أو بلد غربي نتيجة وجود بعض التوافق بين ما يحلم به من عدالة وحقوق قد لا تتوفر أبدا في بلده الأصلي. لقد دفع التشاؤم من المستقبل والطريقة التي تسير بها الأمور إلى ظهور سلوكات غريبة هي في الحقيقة يعيشها الغرب يوميا كانتشار ظواهر الانتحار، وتناول المخدرات، والجريمة. وترجم هذا الوضع عدم تمكن الشباب من التأقلم مع التشبث بالأصل الذي يعد فضيلة كما نعلم، والتكيف مع الواقع المفروض وما يقتضيه من تضحية دون مقابل في الحصول على توزيع عادل للثروة، أو حتى التحول إلى صف الانتهازيين الذين باعوا قيمهم مقابل المراكز والنفوذ.

والحق أن هذه الأنماط الثلاثة للاستجابات هي التي تشكل اليوم المشهد الجزائري في كل مستوياته ومجالاته، بما في ذلك نزعة الثراء وتسلق المراتب، نزعة التسلط والعنف، وأخيرا نزعة اقتناص الفرص والتحرر من كل القيم. في الحقيقة أن الجزائري هو انعكاس صريح ووفي للواقع المعاش والمدرك بكل تناقضاته ومفارقاته. إنه كيان توليفي لكل الأزمات والتشوهات النفسية والاجتماعية والمعرفية لجزائر أخرى[30]. ومن هذا المنطلق يجب التفكير جليا في مستقبل البلاد بالاعتماد على الفرد الذي هو مواطن الغد. أي مواطن نريد؟ وأي قيم يحمل؟ وأين الأصالة الجزائرية من كل هذه البرامج التعليمية والثقافية؟. كل هذه التساؤلات نجدها بسرعة عند الشعب الياباني الذي أبهر العالم رغم المحن التي مر بها، واستطاع أن يجمع بين العصرنة والأصالة، فضل متماسكا، قويا، رائدا كمجتمع لم ينسلخ عن جدوره التاريخية والحضارية.

الخاتمة:

من خلال هذا المسار والواقع، نجد أن الشعب الجزائري لم يستيقظ بعد من سباته، تضاربت فيه مشاكل الهوية بين أمس غامض مكنه من الحفاظ على شخصيته رغم متاعب الاستعمار، وبين مستقبل باهت لم تتجلى ملامحه بعد في عز الاستقلال، حيث ضاعت فيه الحقوق، وسيطرت النظرة الأحادية وتحكمت في طموحات شباب ضاقت بهم السبل في رؤية غد مشرق داخل وطنهم.

لقد ضاعت آمال المجتمع رغم ما ورثوه من جيل الحركة الإصلاحية ومن العائلات الجزائرية المحافظة التي صمدت طويلا بتعليم الأبناء ونقل حب الوطن إليهم أيام الاستعمار، لكن الظروف التي تكون فيها هذا البلد بعد الاستقلال لم تسمح له بالتنبؤ بمستقبل الرباط الذي يربط الشباب بوطنهم ودينهم، وهو الشيء الذي تفاقم بفضل التسيير الذي كرس الهوة بين أطياف المجتمع من حيث الحقوق، والعدالة الاجتماعية، والمساواة حسب تكافؤ الفرص، ففكانت النتيجة هروب الأدمغة إلى الخارج، وتفكير كل شاب في بلد آخر يأويه، تكون فيه نهايته، حتى ينسى الحقيقة المرة المحددة لهويته بكونه جزائري.

لا بد من مراعاة حق المواطنة بتجسيد الوعود، وإحساس الفرد أنه فعلا مواطنا كامل الحقوق، وليس ورقة انتخابية زائلة، يستعملها البعض في الترويج لسياسة مرحلية، سرعان ما تختفي مع اختفاء الاستحقاقات والمواعيد الانتخابية.

الهوامـــش:

[1] - يحي أبو زكريا، من أحمد بن بلة وإلى عبد العزيز بوتفليقة، الجزائر 2003، ص29.wwww.nashiri.net.

[2] - يحي أبو زكريا نفسه.

[3] - بوحسون العربي، بين التاريخ والأنثروبولوجيا: دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعمارية، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية، العدد2، جوان 2010، ص. ص: 168-169. ص ص163-173.

[4] - شقيقة العلوي، العلوم الاجتماعية والإنسانية ودورها في بناء المواطن-اللغة لسان الأمة نموذجا- مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 14، جوان 2015، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، ص.17. ص ص:16-19.

[5] - المرجع نفسه.

[6]- بن ترات جلول، خطاب الزايا وتتجلياته في فهم الهوية الوطنية بين التقليد والتجديد، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية، العدد 6، جوان 2013، ص. 267. ص ص: 267-274.

[7]- المرجع نفسه، ص..270

[8]- يحي أبو زكريا نفسه.

[9]- أحمد محمد عاشوراكس، صفحات تاريخية خالدة من الكفاح الجزائري المسلح ضد جبروت الاستعمار الفرنسي الاستيطاني 1500-1962، المؤسسة العامة للثقافة، ليبيا، 2009، ص ص:145-146.

[10]- أحمد محمد عاشوراكس، ص..151

[11]- يحي أبو زكريا نفسه.

[12]- بن ترات جلول، المرجع السابق، ص..272

[13]- أحمد بن نعمان، الهوية الوطنيةن الحقائق والمغالطات، شركة دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والإشهار، الجزائر، ص..18

[14]- صداق بن خدة، المطالبة بالحريات العامة في الخطاب السياسي للوطنية الجزائرية وفي النزعة المضادة للاستعمار 1919-195، مجلة إنسانيات للأنثروبولوجيا والعلوم الإنسانية، عدد 25-26-2004، وهران، ص ص:179-199.

[15]- أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص..13

[16] -Cherif Benhabies, L’Algérie Française vu par un Indigene, préface de M.George Marçais, Imprimerie Orientale, Fontana Frére, 1914, p.195.

[17] - أحمد بن نعمان، نفسه، ص.19.

[18] - محمد بكار، محمد الصالح بن جلول (1893-1985)، ط1، دار الأصول للطباعة والنشر، سيدي بلعباس، 2009، ص.14.

[19] - عبد الله حمادي، الحركة الطلابية الجزائرية(1871-1962)، مشارب ثقافية إيديولوجية، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1995، ص..69

[20] - جمال خرشي، الاستعمار وسياسة الاستيعاب في الجزائر 1830-1962، دار القصبة للنشر، الجزائر 2009، ص..515

[21]- أحمد بن نعمان، نفسه، ص. 19.

[22]- أحمد بن نعمان، ص.20.

[23] - نفسه، ص..13

[24]- أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص ص:18- 19.

[25] - فكروني زاوي، عقلية الجزائري وأفعاله، محاولة لرصد صورة الجزائري المشخصة في اليومي، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة جيلالي ليابس، سيدي بلعباس، عدد 7، ديسمبر 2013، ص. 220. 211-222

[26] - نفسه.

[27] -Guerid Djamel, L’exception Algérienne, La Modernisation à L’epreuve de société, edition Casbah, Alger, 2007, p.20.

[28] - مصطفى الأشرف، الجزائر: الأمة والمجتمع، تر:حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص.401.

[29] - المرجع نفسه، ص..398

[30] - فكروني زاوي، المرجع الساب

التاريخ الإجتماعي







المجتمع الرباطي والروافد المكونة لثقافته

يونس كبزيز

باحث في تاريخ المغرب

يتميز المغرب بخصوصية جغرافية فريدة جعلته نقطة التقاء الحضارات الشـــرقية والغربيـــة، الشمالية والجنوبية ، فشكل بذلك معبرا وممرا لهذه الحضارات ، وهو ما أكسبه خاصية التعـــايش الحضاري التي ميزته ، فكان كنفا لثقافات وحضارات ، وفدت عليه من مختلف أقطار العالم القديم ، فامتزج فيها سكانها الأصليين بالمهاجرين ، الذين استقروا بالمغرب عبر هجرات متتالية قبـــل و بعد الفتح الإسلامي ، فنسج على مدى قرون طويلة ، الهوية المغربية ، من الأمازيغ والكنعـــانيين والفينيقيين ، العرب المسلمين و غيرهم [1] ، فكان نتاج هذا اللقاء والتمازج أن تشـــكلت هويـــة

[1] الكتاني (محمد)،" الهوية الثقافية للمغرب بين ثوابت الماضي و متغيرات الحاضر"، **ندوة مستقبل الهوية المغربية أمام التحديات المعاصرة "** ص: 234 و ما بعدها

مغربية موحدة بالرغم من المتغيرات التي يفرضها التنوع الثقافي لهذه الأجناس ، التي تمغربت وصار من الصعب عليها العودة إلى ثقافتها الحضارية كما كانت.[2]

بدورها تميزت مدينة الرباط بموقع جغرافي ، جذب إليها العنصر البشري منذ القديم ، حيث امتزجت فيها فئات أمازيغية وعربية ، إسلامية ويهودية ، بعضها عريق في المنطقة ، و البعض الأخر هاجر إليها من الشرق ، و البعض و فد عليها من أقاليم مغربية مختلفة ، قبل أن يترل بها الأندلسيين[3] ، ويغنوا تراثها الحضاري والثقافي ، و كان لكل عنصر من هذه العناصر المكونة للمجتمع الرباطي في مختلف مراحله التاريخية ، دورها وإسهامها في تكوين وتعزيز الهوية والشخصية الرباطية ، وكان لكل واحدة من هذه العناصر أدوار حضارية وثقافية واقتصادية ، يشهد لهم بها معظم المؤرخين والكتاب[4] الذين تحدثوا في أبحاثهم عن المجتمع الرباطي .

يمكن تقسيم المجتمع الرباطي إلى قسمين بارزين ، حتى نبرز الخاصية الاجتماعية للعنصر البشري الذي كان فيه المجتمع الرباطي ،و القسمين هما قسم خاص بالعنصر الإسلامي الذي يتكون من أجناس مختلفة ، و قسم العنصر اليهودي الذي كان له حضور في المجتمع الرباطي منذ القديم.

أ ــ المسلمين :

يدخل ضمن هذا العنصر البشري العديد من الأجناس المختلفة والتي أسلمت مع الفتح الإسلامي ، رغم الميزة التي طبعت ساكنة المغرب عامة و من ضمنها سكان منطقة الرباط الأصليين ، في الإصرار على الإنفراد بخصوصيتهم الثقافية ، إلا أن شروط الانصهار الحضاري وميزة التعايش لدى ساكنة المغرب ، سمح للإسلام باحتلال الصدارة في تشكيل الثقافة المغربية ، ــ على عكس المسيحية التي اعتنقوها في العهد الروماني ، والذين تمردوا فيها على الكنيسة الرسمية بروما ، و انفردوا بمسيحيتهم التي طبعوها بلون وطني ــ ، و كان السبب في منحهم للإسلام

[2] حقي محمد حقي (محمد)، **البربر في الأندلس دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح إلى سقوط الخلافة الأموية 92 هـ/711م – 422 هـ / 1031 م** ص : 283

[3] الجراري(عباس) ، **أضواء على تاريخ الرباط المدينة و الجهة** ، ج 1، ص: **19**

[4] **كمحمد بوجندار و أفراد البعثة العلمية بالمغرب**

ذلك الاستثناء ، لأنهم وجدوا في لغة القرآن وشريعته ما استهوى نفوسهم [5] ، ورغم ذلك كـــان تعربهم لا يخضع للعروبة العرقية بالقدر الذي كان انتماء للعروبة اللسانية [6] .

يتطرق الفقيه عبد الحفيظ الفاسي في كتابه "خطوات و خطرات " للعنصر البشري المكون للمجتمع الرباطي فوضع لها تقسيما اثنيا صنفه إلى أربع مجموعات و هي :

القسم الأول : يسميهم بالشاليين [7] و هم أولائك الذين نزحوا من مدينـــة شـــالة الأثرية بمجرد بناء رباط الفتح في العهد الموحدي ، و يعتقد أنهم السكان الأصلين للمدينة، الـــذين تواجدوا بمنطقة الرباط منذ ما قبل العهد الفينيقي و الروماني و انتقلوا إلى شالة الأثرية عند بناءها من طرف الفينيقيين ، خاصة وأن الاثريين يرجعون الاستيطان البشري بالمنطقة إلى ما قبل 160.000 سنة قبل الميلاد .

القسم الثاني : فينعتهم الفاسي بالأخلاط النازحين إلى الرباط ، وهم مـــن العـــرب والأمازيغ ، و نلاحظ من هذا التقسيم أن عبد الحفيظ الفاسي جعل من العرب و الأمازيغ قســـما ثانيا نزح إلى الرباط ، و هنا نتساءل، هل الشاليين لم يكونوا أمازيغ ؟!!

تزامنت هجرة العرب إلى منطقة الرباط ، مع هجرات القبائل الأمازيغيـــة ، في القـــرون الهجرية الأولى ، و من أشهرها عرب الحجاز ، الذين وفدوا على المغرب مع الفتح الإســـلامي ، و عرب بني معقل خلال القرن 6 هــــ / 12م ، الذي تنحدر منهم قبائل الوداية التي استوطنت الرباط في القرن 19م / 13هـــ [8] ، و من أشهر عائلاتهم نجد عائلة الإدريسي ، و بالمقدم ، وعائلة حســـان [9] .

أما العنصر الأمازيغي ، فجل الدراسات [10] التي تتحدث عن المغرب القديم و ســـكانه الأصليين ، فيشيرون إلى أقدمية هذا العنصر باعتباره أقدم من استوطن المغرب ، وتنقلوا في ربوعه بحثا عن مكان يوفر لهم حاجياتهم الغذائية ، والأمنية ، فكانت منطقة الرباط ، من المنـــاطق الـــتي استهواهم جوها و موقعها ، فاستقرت بها القبائل الأمازيغية طيلة القرون الهجرية الأولى وخـــلال

---

[5] **الكتاني محمد،**" الهوية الثقافية للمغرب بين" **ندوة مستقبل الهوية المغربية** ، ص: 234

[6] **نفسه، ص : 236**

[7] احميدة (محمد) ، "صورة مدينة الرباط من خلال رحلة خطوات و خطرات لعبد الحفيظ الفاسي "**مجلة مجرة** ص : 70

[8] جازوليت (خليل) ، **مدينة الرباط من خلال الوثائق و النصوص التاريخية** ، ص : **29**

[9] **نفسه** ، ص : 28

[10] كمحمد بوكبوط (الممالك الأمازيغية في مواجهة التحديات) ، عبد الكريم غلاب (قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي) ، الحسين السايح (الحضارة المغربية)، مصطفى أعشى (جذور مظاهر الحضارة الأمازيغية خلال عصور ما قبل التاريخ)

عهد الدولة المغربية (الأدارسة ، المرابطون ،و الموحدين، إلخ) ، فعزز بـذلك الجـنس الأوربي ، والصنهاجي ،المصمودي و الزناتي ، التشكيلة البشرية والعرقية للمجتمع الرباطي .

و يصف عبد الحفيظ الفاسي القسم الثالث ، ببيوتات أهل الأندلس ، المتكونين مـن الموركسيين المطرودين من بلاد الأندلس ، حيث استقطبت مدينة الرباط ، أفواجا من المهـاجرين الأندلسيين ، عبر هجرات متتالية ، انطلاقا من القرن 13 الميلادي / 7 الهجري، حيـث مـنحهم الخليفة الموحدي ظهير يسمح لهم بالاستقرار برباط الفتح،[11] وقد ظل التبادل السكاني بين شمـال وجنوب حوض البحر الأبيض المتوسط سمة بارزة ، ودائمة عبر تاريخ المنطقة[12] ويمكن أن نعتـبر هجرات الموركسيين إلى المغرب هجرة معاكسة ، فقد سجلت حركة عبـور مكثفـة للسـكان المغاربة و العرب الفاتحين نحو الضفة الشمالية ، إما للجهاد أو فرارا من الفاتحين ، وقد كان لهـذا العنصر الأندلسي دور مهم في طبع الثقافة والهوية المجتمعية لمدينة الرباط بطابع أندلسي ، أضـفى عليها السمة الحضارية و المدنية.

يختم الفقيه الفاسي تصنيفه لساكنة الرباط بالعنصر الفاسي ، فسماهم ببيوتات أهل فاس ، الذين انتقلوا إلى الرباط خلال القرن 18م/12هـ للتجارة و غيرها ، إضافة إلى العنصـر المراكشي ، و مجموعات من المهاجرين السود الأحرار منهم و العبيد ، كما قدمت أسر من أقاليم سوس و الصحراء ، و الشاوية ودكالة [13] كما تدل على ذلك أسماء بعـض العـائلات والـولاة والعمال ، الذين تعاقبوا على مدينة الرباط ، خاصة في القرنين 18ـ19م/12ـ13 هــ، نـذكر منهم على سبيل المثال ، عائلة آل السويسي المنحدرة من منطقة سوس في الجنوب المغربي ، وعائلة الحاج أعشاش التطواني ذي الأصل التطواني من الشمال المغربي والذي كان واليا علـى تامسـنا والرباط سنة 1813م/ 1228هـ. [14]

إن طابع التسامح والتعايش الذي يتميز به أهل المغرب عامة ، وأهل الرباط خاصة ، أدى إلى تمازج ثقافي واجتماعي بين هذه الفئات الوافدة على المنطقة ، فميز مدينة الرباط بطابع اجتماعي وثقافي متفرد ، و هو تمازج سمح بتكييف "نفسية الرباطيين و مزاجهم ، مما أفضـى إلى

---

[11] ابن مرابط (ابى العلاء محمد المرادي) ، **زواهر الفكر و جواهر الفقر** دراسة وتحقيق أحمد المصباحي ، ، ج1، ص : 228 ،231

[12] حقي ، **البربر في الأندلس** ، ص : 31

[13] جازوليت ،**مدينة الرباط من خلال الوثائق** ، ص : 29

[14] بوشعراء (مصطفى) ، **الإستيطان و الحماية بالمغرب ، 128-1311هـ/1863-1894**، ج 2 مدن الشمال ، ص : 742

طبيعة يغلب عليها الجد و الوقار ، ونزاهة و استقامة ، و أنفة و إباء نفس ، لكن مع سلامة صدر و تواضع جم ، يصل إلى حد نكران الذات و التفاني في خدمة الغير والصدق في معاشرته و الأمانة في خدمته و الوفاء الخالص له[15] هي صفات يؤكد عليها عبدالحفيظ الفاسي في كتابه خطوات و خطرات ،لما رآه في حسن و كرم مضيفه.[16]

كان العنصر الأندلسي أكثر الفئات المؤثرة في الطابع الثقافي و الاجتماعي لمدينة الربـــاط ، حيث ساهموا في تطعيم المجتمع الرباطي بالسمة الحضارية و المدنية ، بفضل ما حملـــوه معهـــم إلى المدينة من علم و فن و حضارة ، وفي ذلك يقول مؤرخ الرباط محمد بوجندار " أهل الرباط على العموم هم أهل مدنية ، لا يعادلهم فيها إلا أهل فاس و تطوان ، نظرا لأصلهم الأندلسي الأصيل في العراقة و الحضرية التي نشاهد من آثارها في الرباط والرباطيين ، ما هو ظاهر ظهور الشمس ، في معارفهم و آدابهم و صنائعهم".[17]

ب ــ اليهود :

من بين الفئات الوافدة على المغرب منذ القديم ، نجد العنصر اليهودي ، الـــذي اســـتوطن المغرب في فترة مبكرة ، حيث يذهب بعض الباحثين [18] خاصة اليهود منـــهم ، إلى أن العنصـــر اليهودي يرجع تواجده بالمغرب إلى الفترة الفينيقية و الرومانية ، مستدلين على ذلك ، بالنقوش و الكتابات و الأثريات التي وجدت بالمغرب ، كما هو الشأن بمدينة وليلي التي عثر فيها على شمعدان ذو السبعة عروش ، و بقايا شاهد قبر يحمل كتابة عبرية [19] و يـــرجعهم الـــبعض الآخـــر[20] إلى الهجرات الأولى ، الآتية من فلسطين ، قبل الأسر البابلي الذي تعرض له اليهود ، بعد أن قام ملك بابل نبوخد ناصر ، بمهاجمة أورشليم (القدس) في عام 587 ق م [21] و الهجرة الثانية كانت مـــع الفينيقيين ، حيث و جدوا في بلاد المغرب الفينيقي المأوى و القبول ، والظروف الملائمة للاستيطان ، لما بين الفريقين من صلات الجنس و اللغة و التقاليد ، وهو ما سمح لليهود بالتوغل داخل بـــلاد البربر ، و تمرس اليهود على أعمال التجارة نتيجة لاحتكاكهم بالفينيقيين ، و تمازجوا معهم لأنهم

---

[15] الجراري ، **أضواء على تاريخ الرباط** ، ج 1 ص: 20
[16] احميدة ، "صورة مدينة الرباط من خلال" ،**مجلة مجرة** ، ص : **70**
[17]نفسه
[18] **من هؤلاء الباحثين نذكر حاييم زعفراني ، شمعون ليڤي ، جرمان عياش**
[19] الوادي (محمد) ، **الوجود اليهودي بالمغرب ـ الجذور و الامتدادات**، 2007 ، ص : 88
[20] **منهم عطا علي شحاته ريه ، محمد الوادي**
[21] ريه (عطا علي شحاته) ، **اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين و الوطاسيين** ، ص: 23

أصحاب عقيدة لا وطن ، أما الهجرة الثالثة إلى مغرب كانت في العهد الروماني خلال القرن الأول ميلادي ، نتيجة للاضطهاد الروماني لهم[22] ، و بما أن اليهود هم أهل تجارة فقد اختارت فئة منهم الاستقرار في بعض المراكز الساحلية ، ذات النشاط التجاري [23] ، و بخصوص مدينــة الربــاط ، فتذهب الروايات إلى أنهم وفدوا عليها منذ العصور الوسطى ، فيقول في هذا ابــن خلــدون "أن اليهود قطنوا بلاد تامسنا و تادلا و ظلوا يسكنون في المدينتين و بعض مناطق هذا الإقلــيم حــتى عصر الموحدين [24] ، كما حلت طائفة منهم مع الهجرات الأندلسية في القرن 17م/11هــ [25].

رغم أقدمية هذا العنصر البشري في منطقة الرباط ، إلا انه لم يستطع أن يؤثر بشكل كبير في المجتمع الرباطي ، بسبب العزلة الثقافية التي فرضوها على أنفسهم في البداية ، وفرضت علــيهم في النهاية ، مع المولى سليمان ، الذي عزلهم في مجتمعهم الصغير داخل الملاحات ، و قــد يعتقــد البعض ، أن في هذا الأمر ميز عنصري ، و اضطهاد لفئات طالما كانت نشيطة و مؤثرة في الحيــاة السياسة و الاقتصادية للمغرب ، كما قد يستغرب البعض من أمر كهذا صادر من سلطان دائما ما نعت بالفقيه الذي يصلح أن يحكم بين الملائكة لا بين البشر، لورعه و تقــواه ، خاصــة و أن لا وجود لهذه العنصرية في الأديان السماوية ، لكن المتمعن في الأمر سيجد أن لا علاقة تربطه بــالميز العرقي أو الديني ، و إنما هو راجع إلى أسباب مادية ، و اليهود أنفسهم ، تأكد لهم بالملموس ، أن هذا الأمر هو في صالحهم ،إذ وفر لهم فضاء يمارسون فيه حريتهم الدينية وممارساتهم الاجتماعية ، بالإضافة إلى الأمن والأمان الذي توفره لهم أسوار الملاح[26] ، لكن رغم هذه العزلة التي أحاط بهــا اليهود أنفسهم لم تمنعهم من المشاركة في الحياة الاجتماعية للوسط الذي يعيشون فيه ، فقد وجدنا في تاريخ المغرب يهودا مغاربة تقلدوا مناصب سامية في الدولة ، حيث كانت رعايــة الســلاطين تشملهم بصفتهم رعايا و مواطنين مغاربة ، لهم نفس الحقوق التي لدى غيرهم من المواطنين ، وهو ما نلمسه من بيان الملك محمد الخامس ، على إثر القوانين التي أصدرتها حكومة فيشي في أكتــوبر 1940م/1359هــ ، حيث قال فيه " إن يهود المغرب هم رعيتي و من واجبي حمايتــهم ضــد أي

[22] **نفسه ، ص : 24 و ما بعدها**

[23] الوادي ، **الوجود اليهودي بالمغرب** ، ص : 88

[24] الوادي (محمد) ، **الوجود اليهودي بالمغرب** ، ص : 88

[25] **جازوليت ، مدينة الرباط من خلال الوثائق** ، ص : 30

[26] أصراف رابير ، **محمد الخامس و اليهود المغاربة ، ترجمة علي الصقلي و محمد كلزيم** ، مطبعة النجاح الجديدة ، الطبعة الأولى ، الدار البيضاء ،1997 ، ص : 86

اعتداء "[27] . لقد عرفت وضعية اليهود تغييرات عميقة مع في عهد الحماية ، حيث تقرر حـــذف الجزية و غيرها من الضرائب الاستثنائية ، و سقطت إلزامية كل الممارســـات التمييزيـــة المتعلقـــة بالمسكن و الملبس [28] ، و تجاوز اليهود أسوار ملاحهم ، فهجرت العائلات الميســـورة بفـــاس و الرباط و الدار البيضاء أحياء الملاح ، لتستقر في الأحياء الجديدة التي شيدها الفرنسيون [29] .

خلاصة:

تميز المجتمع المغربي عامة و الرباطي خاصة ، بتنوع في التشكيلة السكانية ، الـــتي تكونـــت على مدى تاريخه العريق و التي أغنت موروثه الثقافي و الاجتماعي ، و ساهمت في تمييـــز المجتمـــع الرباطي عن غيره ، بخصوصيات ثقافية ،لا نجدها إلا فيه ، مع التأكيـــد علـــى أن تـــأثير هـــذه التشكيلات السكانية ،لم يكن بنفس الحدة عند معظمهم ، حيث يغلب على المجتمـــع الربـــاطي الطابع الأندلسي خاصة ، و التي يقول عبد الحفيظ الفاسي عن العناصر الأندلسية "بأنها زينة البلاد و أعيانها.[30]

---

[27] العلوي (زين العابدين) ، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني** ،دار ابي رقراق للطباعة و النشر، د.ط ، الرباط، 2009 ، ج 3، ص : 214

[28] أ صراف ، **محمد الخامس و اليهود المغاربة** ، ص : 76

[29] **نفسه ، ص : 86**

[30] احميدة ، "صورة مدينة الرباط من خلال" **مجلة مجرة** ، ص : 70







طرق التجارة بين بلدان المغارب من خلال رحلات مغاربية (الرحلة الناصرية و الورتيلانية أنموذجا)

مشوشة سمير
باحث دكتوراه تاريخ حديث
ومعاصر ـ الجزائر

مقدمة:

تنوعت الرحلات المغاربية تجاه المشرق بتنوع أهدافها ومقاصدها، وتعددت بتعدد أسبابها وحوافزها، مما أدى إلى الربط بين ثقافة المجالين الجغرافيين في مجالات عديدة، وهذه الرحلات لم تكن ذات طابع واحد فقد كانت علمية، دينية، تجارية، استكشافية، وانتقل هذا النوع من السفر من المشرق إلى بلاد المغرب وأصبح جزءا من طريقة الانتقال من منطقة إلى أخرى وسميت "بالرحلات الحجازية"، وكان سكان بلاد المغرب يتبعون منهج المشرقيين في الرحلة خاصة ذات البعد الديني، وقد تم تدوينها في شكل يوميات وكان أكثرهم ينتمون إلى العلماء المحليين، والذي كان لهم دور كبير في إخراجها كمصادر تاريخية هامة اعتمد عليها أغلب الباحثين في دراساتهم، ولعل من أهم الرحلات المغاربية رحلتي الدرعي والورتيلاني والتي ساهمت كثيرا في معرفة ووصف

المناطق ومختلف الطرق التي تسلكها القوافل التجارية في بلاد المغرب العربي، فحاولنا بذلك من خلال موضوع هذا المقال الكشف عن مسار شبكة الطرق التجارية من خلال قراءة في رحلتي الدرعي والورتيلاني باعتبارهما من أهم الرحلات خلال العهد العثماني . ولهذا الأمر استوجب عليَّ الإشارة والوقوف عند تراجمهما والتعريف بكتب رحلاتهما .

(1-1) محمد بن ناصر الدرعي، صاحب "الرحلة الناصرية" :

هو أبو العباس سيد أحمد بن أبي عبد الله بن محمد بن ناصر الدرعين ولد بقرية بوادي درعة[31] جنوبي مراكش تسمى "تمكروت" بالمغرب الأقصى سنة (1057ه/1647م)، كان أبوه شيخا للزاوية الناصرية، عرف عليه حبه للسفر والارتحال خاصة لأداء فريضة الحج، حيث أنه حج أربع مرات: الأولى رفقة أبيه وكانت بهدف معرفة الطريق نحو المشرق، والثانية سنة (1096ه/1684م)، الثالثة عام (1109ه/1697م)، والرحلة الرابعة سنة (1121-1022ه/1709-1710م) - قام فيها بذكر ووصف لرحلاته الثلاثة الأولى - واستغرقت عاما كاملا [32] وحملت عنوان "الرحلة الناصرية"[33]، كان من فضلاء أهل المغرب وصلحائها[34] وله مؤلفات كثيرة أهمها كتاب "الأجوبة الناصرية"[35]، توفي بتمكروت ودفن مع أبيه سنة (1129ه-1717م)[36] .

(2-1)- التعريف بكتاب الرحلة الناصرية (1121- 1022ه/1709- 1710م) :

ارتحل أحمد بن ناصر الدرعي (ت 1128ه/1717م) لأداء فريضة الحج أربع مرات، عرف من خلالها أمورا كثيرة، ولكي يستفاد من رحلاته المختلفة قام بتدوين رحلته الأخيرة سنة (1121ه-1709م) وأخرجها بعنوان "الرحلة الناصرية"[37]، والتي اعتبرت بمثابة أهم مؤلفاته، وقد طُبعت بالمطبعة الحجرية بفاس المغربية سنة (1320ه/1902مـــ)[38]، وتم إخراجها في جزأين (الجزء الأول

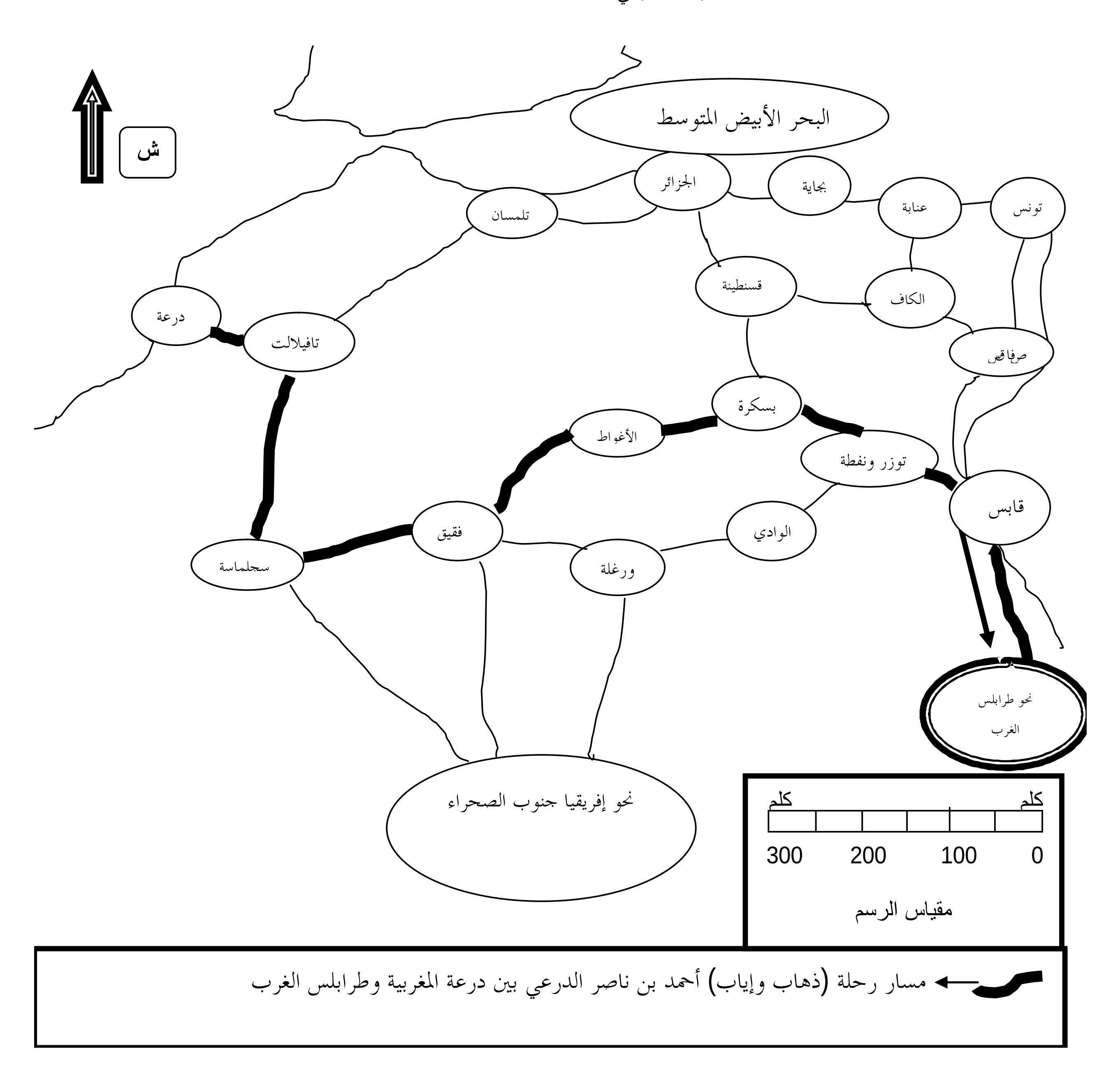
به 248 صفحة والجزء الثاني به 200 صفحة بمجموع 448 صفحة)، وقد تطرق فيها إلى رحلاته السابقة، فوصف أغلب الأماكن والمسالك والقبائل انطلاقا من مسقط رأسه بتمكروت بالمغرب الأقصى مرورا بالجزائر وتونس وطرابلس ومصر وصولا إلى الحجاز، نفس الشيء قام به أثناء عودته من المشرق[39] .فهذه الرحلة تعتبر من أهم المصادر التي يعتمد عليها الباحثون والدارسون لتاريخ بلاد المغرب خلال القرن 12ه/18م، فعند العودة إلى متنها نجد أن مؤلفها اعتمد وأخذ من رحالة سابقين له مثل العبدري ، التجاني والعياشي. ويمكن وضعها في خانة تقرير مفصل لنشاط الراحل و الرحل الذي ينتمي إليه كاتب هذه الرحلة، فسجل كل أحداث الرحلة من خلال وصفه لمراحل الرحلة وذكر مميزات المسالك ووعورتها، والطريق وأحوالها، وأماكن النزول والراحة والمبيت، وحالات اللاآمن في الطرق ومختلف المشاكل والصعوبات التي تواجه القافلة، فابن الدرعي راعى الإفادة العلمية، والتوجيه الديني للراغب في الحج وتأدية فريضته على أكمل وجه، فهي تمثل وسيلة للتواصل العلمي والاجتماعي بين بلاد المغرب وبقية المجتمعات التي يتم الاتصال بها، وبخاصة الأماكن التي تمتد بها إقامة الحجاج الراحلين، فيكون فيها متسع من الوقت للتعرف على نشاط أهلها الاقتصادي و الاجتماعي والديني، فمتنها يتوفر على إشارات ونصوص وروايات تحمل طابع اقتصادي تجاري (قوافل، طرق تجارية، سلع ومنتوجات زراعية وصناعية، بيع وشراء، أماكن جغرافية) .ومن خلال ما أوردته نصوص هذه الرحلة وبعد دراسة تحليلية دقيقة، أمكننا أن نستخلص الطريق الذي سلكته هذه القافلة نحو طرابلس انطلاقا من المغرب والذي نجده على النحو التالي:

-درعة – تافيلالت – سجلماسة – المريجة – بشار – أم إلياس – فجيج (فكيك أو فقيق) – أبي سمغون (بوسمغون) - الأغواط - تجموت – سيدي خالد – أولاد جلال – بسكرة – سيدي عقبة – زريبة الوادي – سبخة تاكمرت – الحامة (حامة البهاليل) – توزر – زاوية الرمل – حامة قابس (حامة مطماطة) – قابس –أبي غرارة – ابن فردان – برج الملح – الزوارة الغربية – زنزور(جنزور) – طرابلس .أما عن طريق العودة من طرابلس إلى درعة المغربية فكان على النحو التالي :

- طرابلس – قرقاش – الزاوية الغربية – الزوارة الغربية – برج الملح – قابس – تقيوس (ودقاش حاليا) – توزر – وادي غسران – زريبة حامد – خنقة سيدي ناجي – زريبة الوادي – سيدي عقبة – بسكرة – سيدي خالد – أولاد سيد عيسى (سيدي عيسى) – الغاسول – بوسمغون – فجيج (فكيك) – بشار – القنادسة – تافيلالت – درعة .

والخريطة المرفقة هي نتاج لهذه الدراسة :

خريطة توضح مسار الطريق التجاري بين المغرب الأقصى وطرابلس الغرب من خلال رحلة الدرعي:



(2 - 1) - الحسين بن محمد الورتيلاني، صاحب "الرحلة الورتيلانية":

مؤرخ وفقيه ورحالة جزائري، ولد عام 1125ه/1713م[40] ببني ورتيلان[41]، حفظ القرآن الكريم في صغره و عن والده أخذ من العلم الكثير، فدرس الأدب والتاريخ والتصوف[42] على الطريقة الشاذلية[43]، فأصبح في سن مبكرة بعد تنقله بين مختلف المدن الجزائرية أشهر علمائها[44]، قضى أغلب حياته في السفر والترحال فقام بثلاث رحلات لأداء فريضة الحج (1153-1168-1179ه)/(1740-1755-1765م) زار من خلالها العديد من المناطق في تونس وليبيا و مصر و بلاد الحجاز، وكان يقوم بتسجيل كل ماشاهده في الطريق ووصف المسالك و أحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم، والتقى العديد من العلماء والفقهاء ببلاد المغرب والمشرق فأصبح شغوفا لنيل مختلف المعارف[45]، تتلمذ على يده العديد من الطلبة الذين أصبحوا شيوخا فيما بعد منهم: أبو القاسم بن مدور و يحي بن حمزة الشيخ محمد بن الفقيه و آخرين، فاشتهر الورتيلاني بمؤلفات وآثار عديدة أهمها :كتاب الرحلة الورتيلانية الموسومة ب"نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" وجاء تأليفها أثناء رحلته الأخيرة للحج سنة 1179ه/1765م، وكذلك "المنظومة القدسية"[46]، توفي الحسين الورتيلاني بعد سنة 1193ه/1779م[47] .

(2 – 2) كتاب الرحلة الورتيلانية المسماة " نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" (1179ه/1765م):

يعتبر كتاب الرحلة الورتيلانية والموسومة ب "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" أحد أبرز مؤلفات الحسين الورتيلاني[48]، فهي من أهم المصادر التي تضاف في خزانة مؤلفات الرحالة المغاربة خلال القرن 12ه/18م وهذا إن لم نقل أبرز كتب الرحلات خلال الفترة العثمانية

بالجزائر[49]، فقد تم تأليفها أثناء حجته الثالثة سنة 1179ه/1765م حيث نجد متنها جمع بين التحصيل العلمي وأهداف أداء فريضة الحج، فقد أراد من وراء كل هذا إخراج مؤلف تاريخي يترجم له ولعصره، و قام محمد بن أبي شنب بتصحيح الكتاب وطبعه عام 1326ه/1908م بمطبعة بيير فونتانا الشرقية بالجزائر و يحتوي على 820 صفحة[50]، و جاءت طبعة ثانية صادرة عن دار الكتاب العربي ببيروت سنة 1353ه/1934م، وقام بتحقيق الرحلة الأستاذ مختار فيلالي وأخذت الرحلة نصيبها في دراسات الأستاذ أبو القاسم سعد الله[51]، ومن منطلق ما جاء به محتوى هذا المصدر التاريخي الهام خلال القرن 12ه/18م والذي كان قريبا من محيط التجارة وحمل في طياته العديد من الإشارات والروايات والنصوص ذات الصبغة التجارية من خلالها كل هذا حاولنا رسم شبكة للطرق التجارية، وهذا انطلاقا من عمليات الوصف والمشاهدات التي قام بسردها -الورتيلاني- لمختلف المناطق والمسالك التي مر بها .

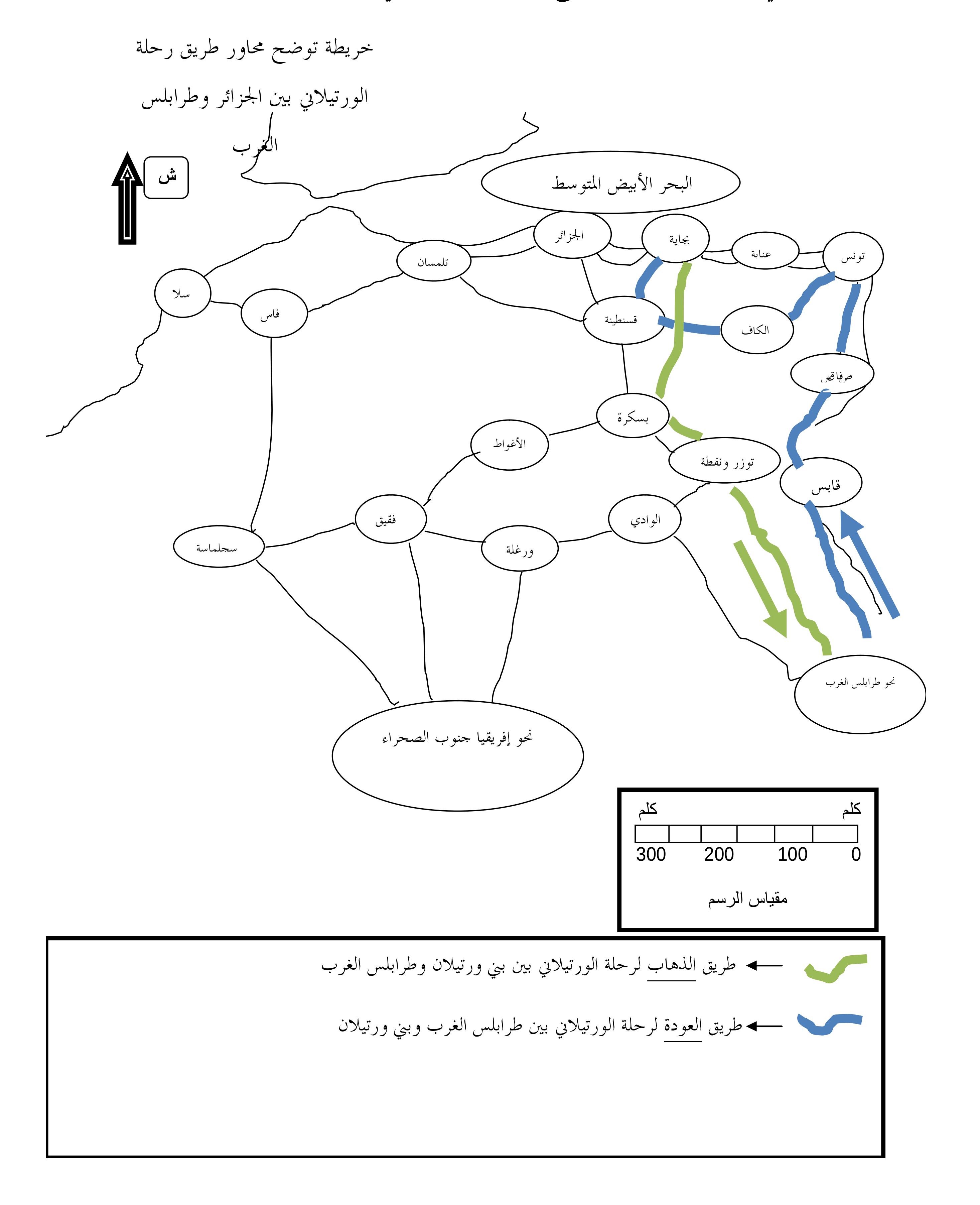
ومن خلال ما أورده متن هذه الرحلة، يمكننا أن نستخلص الطريق الذي سلكته هذه القافلة في رحلة ذهابها نحو طرابلس انطلاقا من بني ورتيلان والذي نجده على النحو التالي:

- بني ورتيلان – الجمعة " جمعة الصهريج" – ورجة – زمورة – قصر الطير – الحضنة – مدكال – بريكة – سيدي خالد – أولاد جلال – بسكرة – طولقة – سيدي عقبة – الزرائب "زريبة الوادي وزريبة حامد" – غسران – خنقة سيدي ناجي – حامة توزر "حامة البهاليل" – توزر – حامة قابس "حامة مطماطة" – قابس – قرية عرام – برج الملح –الزوارة الغربية - زواغة – الزاوية الشرقية – زنزور – طرابلس.

أما عن طريق عودته بين طرابلس الغرب نحو بني ورتيلان فكان على النحو التالي :

-طرابلس - قصر الملح – قرية عرام – قابس – صفاقس – سوسة – حمام الأنف – تونس – تستور – تبرسق – الكاف – قسنطينة – زمورة – بني ورتيلان .

والخريطة المرفقة هي نتيجة دراسة دقيقة وتتبع لمسار الرحلة بين بني ورتيلان وطرابلس الغرب :



خاتمة :

تميزت رحلات المغاربة بقصورها عن تصوير الجانب التجاري الذي يربط بلدان المغرب العربي خاصة خلال العهد العثماني وهذا لطغيان الطابع الديني (الحج)، الاستكشافي (الجغرافيا)، الثقافي (العلمي)، وما تم تسجيله لبعض التفاصيل التجارية لا يتعدى وصف الأماكن الجغرافية وإشارات إلى عمليات البيع والشراء في بعض الأسواق، وإن المتعامل مع نصوص الرحلتين يدرك صعوبة تحديد نوعية الحركية التجارية، خاصة في ظل التعتيم الشبه الكامل الذي تميزت به عن وجود تواصل حقيقي وواضح في متن هاتين الرحلتن وما تم التوصل إليه هي اجتهادات واستنتاجات، وحقيقة كل هذا فرض علينا الدخول في مقاربات وترجيحات من أجل رسم صورة لشبكة الطرق التجارية انطلاقا من مصادر تاريخية هامة خاصة ببلاد المغرب وأن أهمية هذه الرحلات تكمن في فتح آفاق التواصل بين مختلف البلدان، فوصفت القوافل التجارية، ورسمت طرقها التجارية وما يغلب على أساليب ومضامين هذه الكتب وموضوعاتها هو تسجيل معالم الطريق وأحداثها وما جرى لصاحبها وقافلته من منطلقه إلى غاية عودته .

الهوامش :

(1)/ مدينة صغيرة بمنطقة السوس المغربي ، للمزيد ينظر : الزهري، **كتاب الجغرافية**، تح: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، د س، ص. 156، وكذلك : الحموي، **معجم البلدان**، مج2، دار صادر، بيروت، 1977، ص. 451 .

(2)/ عبد الهادي التازي، **رحلة الرحلات ... مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة**، ج1، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة، 2005، ص-ص. 253-254 .

(3) إغناطيوس يوليانوڤتش كراتشكوڤسكي، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، ج2، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ص-ص. 765-766 .

(4)/ القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني المعروفة ب "موسوعة أعلام المغرب"**، ج4، تح : محمد حجي و أحمد التوفيق، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص. 1583 .

(5)/خير الدين الزركلي، **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج1، ط15، دار العلم للملايين لتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 2002، ص. 241 .

(6)/السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، ج2، مراجعة : عبد الوهاب ابن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص. 360 . وكذلك : كراتشكوڤسكي، المرجع السابق، ص. 765 .

(7)/عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص-ص. 253-254 ،

(8)/ كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص. 766 .

(9)/ نفسه، ص. 766 .

(10)/ مختار فيلالي، **رحلة الورتيلاني، عرض ودراسة**، دار الشهاب للطباعة والنشر، الجزائر، 1978، ص-ص. 14-15 .

(11)/ منطقة بالقبائل الصغرى قرب بجاية، وللمزيد ينظر : عبد الرحمن عزي، **التواصل القيمي في الرحلة الورتيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص. 9.

(12)/ يحي بوعزيز، **أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة**، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص-ص. 44-45 .

(12)/ الشاذلية: طريقة صوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي ،يؤمن أصحابها بجملة الأفكار والمعتقدات الصوفية، للمزيد ينظر : مأمون غريب، **أبو الحسن الشاذلي حياته..تصوفه.. تلاميذه وأوراده**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000، ص-ص-ص. 14-63-64 .

(14)/ عبد الرحمن عزي، **التواصل القيمي في الرحلة الورتيلانية الموسومة بنزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص. 11 .

(15)/ يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص-ص. 45-46 .

(16)/ الحسين بن محمد الورتيلاني، **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، "الرحلة الورتيلانية"**، مطبعة بيير فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908 ، ص. 4 .

(17)/ بوعزيز، نفسه، ص. 47 ، وكذلك : التازي، مرجع سابق، ص. 375 .

(18)/ عبد الرحمن عزي، المرجع السابق، ص. 9 .

(19)/ للمزيد ينظر: عبد المجيد بوجلة ، "ملخص رحلة الورتيلاني إلى مصر"، ***مجلة المركز العربي للأدب الجغرافي، -ارتياد الآفاق-، ندوة الجزائر الأولى***، 2004، ص. 4 .

(20)/ للمزيد ينظر: كراتشكوفسكي، مرجع سابق، ص. 767 ، وكذلك، التازي، مرجع سابق، ص. 375 ، وأيضا بوعزيز، مرجع سابق، ص. 47 .

(21)/ للمزيد ينظر: سعد الله، أبو القاسم، أبحاث **وآراء في تاريخ الجزائر**، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص-ص. 187-190 .





الواجهات البحرية بالمغرب



ذ.عمر عمالك
باحث في التاريخ البحري
وحدة المغرب وأوربا
جامعة محمد الخامس ـ الرباط

تدخل الواجهات البحرية في تغيير الأنماط الاجتماعية والبنى الثقافية عند مغاربة القرنين 19/18.أريد من خلال هذا العنوان أن أطرح إشكالية عامة: حول دور البحر في التغيير، أو بتعبير أخر كشف العلاقة المغرب (البحري) التفاعل بين الجغرافية وأنماط السلوك السياسي الإجتماعي والذهني. كما أود التطرق إلى بعض التطورات التي فرضها البحر، ومجاورته. كما أرغب في تناول التغييرات الثقافية والعلمية التي شهدها المغرب البحري. و أطرح مشكلة العاملين في البحرية المغربية والأطراف المتحكمة في الجو العام، ومدى إلمام المغاربة بالواجهات البحرية، وذلك من خلال ثلاثة نماذج:

- الرياس(عبد الله ميكاني الرباطي)
- الرحالة والحجاج(أبو بكر أبن يوسف القاضي الفونتي)
- فقهاء المغرب.

ثلاثة نماذج، تحوي التطورات التي شهدتها الواجهات البحرية للمغرب(المتوسطية والأطلنتية) اجتماعيا وثقافيا و سياسيا خلال القرنين 19/18م.

شكل البعد الاجرائي أحد المحطات الاساس في التدبير وسلامة التدابير والممارسات في جل المجالات ذات البعد الجيوسياسي عبر التاريخ . ولا يخفى على الباحثين مدى صعوبة الفصل بين ما هو سياسي واقتصادي ونفسي ذهني في البحث التاريخي بمغرب العصر الحديث. ولما اقتحمنا تبيان ودراسة الواجهات البحرية لم نشح النظر عن الاستمداد من الفاعلين والمرتفقين البحريين والمدبر الأول له من رياس وأمناء أو رحالة اعتادوا الاسفار عبره .

فالرياس هم فئة غاصة وخبرت العمل البحري ولهم ارتباط بالبحر ويعرفون دواخله ومخارجه. وأما الرحالة الذي أشير إليه وفي مقدمتهم "الفونتي يوسف السوداني" كنموذج حي لعقلية بعيدة عن البحر يظهر ذلك من خلال انطباعات مهمة سجلها حول الفضاء البحري وفق أصول ومراجع فكرية يلفها البعد القاري والمنطلق الاخلاقي الذي يظل هو الفاعل المتحكم في التشريع هو "الفقيه" لما يحمله من نظرة إيجابية أو سلبية عن البحر، ومدى استيفاء إدراكاته لمتطلبات الواجهة البحرية بمغرب دار الحرب ودار السلم. ولهذا ارتأيت تقديم مختلف التفاعلات الذهنية عن الواجهة البحرية وفق بناء النصي على هذا التصميم:

- ♦ المعارف المغربية للواجهة البحرية (أسماء البحار....)
- ♦المعارف الجغرافية عند الرياس البحريين(الرؤوس الخلجان الموانئ..)
- ♦ تغيير المنطلقات المعرفية، وهدم للبنى الثقافية(حينما يتعلق المر بالساحل).
- ♦حرص السواحل على التمييز داخل السلطة المغربية. الواجهة البحرية عند النخبة(فقهاء .الولاة السلاطين).

نقصد بالواجهات البحرية كل الثغور والمناطق المفتوحة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنتي، والتي تدخل تحت سيادة سلطان المغرب، سواء أكانت مرافئ أو مجالات مشاعة.

واعتبار الواجهة البحرية فضاء جغرافي متغير ومعقد يناقض القارية ومداخل البلدان إضافة إلى كون المغرب مجالا عريقا في الملاحة البحرية وتوالي الدول والقبائل على حكمه، اعتبرت الواجهة البحرية منطقة التنافس وموطن التزود بالمؤن والأسلحة....وتستوجب الحراسة والجند من قبل الحكومة المركزية، ومن وظائف السلطان الدود عنها ودرء المخاطر وحماية الرعية، الشيء الذي يجعل من المنطقة البحرية منطقة متميزة داخل الفضاء المغربي.

ــ الواجهة البحرية فضاء معرفي :

إن ضبط تاريخ المغرب الحديث ودور المناطق الهامشية (الواجهة البحرية) في صنع الأحداث وخلق وظائف تغييرية لبنى فكرية واجتماعية وبناء ثقافة جديدة منفتحة على الآخر، أو بتعبير آخر طرح إشكالية التقدم والتأخر وجذور الحداثة بالمغرب[52] التي يساهم العمل البحري فيها أو يصد عنها.

الاشتغال والتطرق إلى المعارف الجغرافية البحرية والتعليم الملاحي والبحري بالمغرب عبر التاريخ واستدماج التقنية البحرية والاقتصادية يبين ما مدى أهمية البحر في دراسة منطلقات التغيير وهل كان العطب المغربي قديم؟

لعرض هذه الأفكار وتقريبها في فترة زمنية ممتدة على طول قرنين ،ذلك أن توضيح الأفق لابد له من دراسة على المدى البعيد حتى تظهر أهمية "البحر"موضوع تاريخي ، ودور الواجهة البحرية في البناء الثقافي منذ القرنين 18/و19 على دواخل البلد .

افترضت أن البحر ما هو إلا مجمع ولقاء ثقافي وحامل أفكار وموجات بشرية شكل عمود تجميع الفرقاء من الشعوب وشداد الآفاق يلي كل بحظه في تطوير المجال .والمغرب بم يكن بمنأى عن التدفق البشري منذ القديم[53] وخلقت عدة مجموعات بشرية أعطت للمغرب ثقافة بحرية غير متجانسة[54] ولا أقول بدعا من القول إذا اعتبرت البحر عنصر متميز ساعد على قيام حضارات سابقة مثل الإغريقية والفينيقية والرومانية والقرطاجية ...التي عرفت مدا وجزرا تبعا لتحكم أحدى القوى في الواجهة البحرية ،وتسويق معارف وأساطير سرعان ما انتشرت في الواجهات البحرية[55] تحملها الجيوش والتجارة والخفارة .ولقد عاش المغرب لحسن أو سوء حظه في موقع استراتيجي ،تبحر فيه معظم السفن ساقته للدخول في المنظومة الثقافية العالمية عبر مرحلتين :

الأولى : مرحلة الامتداد والنشاط

الثانية: مرحلة الانحطاط والعزلة

لتكون معارف المغرب عن البحر والواجهة البحرية بسمات هذه الفترة:

---

[52]) سبق للأستاذ عبد المجيد القدوري أن تناول الحديث عن الحداثة في تاريخ المغرب ما بين القرنين 15و18 الميلاديين، في كتابه المغرب وأوربا، طبعة المركز الثقافي العربي البيضاء2000

[53]) أنظر مجلة عالم المعرفة "البحر والتاريخ"ع314 مارس2006، السفينة حاملة الأفكار والناس، ص

[54]) عمر عمالكي "البحر في ذهنية فقهاء المغرب" رسالة السلك الثالث ،كلية الآداب الرباط 2006،مقدمة العمل.

[55]) نقل هوميروس "الأوديسا" من ما قبل التاريخ حكايات المخلوقات العجيبة و الغريبة التي تعرف بعرائس البحر، تعيش إلى جانب الإنسان، يسري الجوهري الكشوف الجغرافية، دراسة تاريخ الكشوف الجغرافية وتطور الفكر الجغرافي ، ط الإسكندرية دار المعارف1967،ص11.

البحر المتوسط: يعرف بالبحر الرومي والشامي وبحيرة السلام والقلزم ، وبحرنا و قد سمع عن خوف الأوربيين من البربر ومعاناتهم من هجماتهم وطلب هرقل بحفر البحر والمضيق لفصل القارتين[56]. بعد مدة توالت حضارات أوربية أمطرت الساحل المغربي بالهجمات مما منحها وضعا خاصا لذا أخذ المغاربة في التوسع وممارسة الأنشطة البحرية لرد الهجمات الأوربية.وصور ذلك بأساطير وممارسات وطقوس، يفترض إماطة اللثام عليها وكشف العلاقة بين الزمان والمكان لقبول أي اجتهاد حول طبيعة استعمال الأسماء أو استنباطها في المجال المغربي، هل هو اتفاق ثقافي منتشر أو تطور مستقل لثقافات موحدة الملامح الانثربولوجية أو كما يقول المؤرخ فرناند بروديل "عنوان الحظ في المعرفة [57] ولقد منحها المغاربة تسميات من قبيل: خلق عظيم البحر المظلم البحر المحيط بحر الظلمات الثغور المراسي السواحل حاجز ما بين دار الإسلام ودار الحرب[58] ،مما يدل على البعد الثقافي والمناخ الديني وتحكم المراكز القارية[59] لهذه التسميات إلى عصر ابن خلدون وبعده

ــ تسمية المناطق البحرية و جغرفة السواحل:

تعتبر السواحل صوى وعلامات كالجبال وحدودا طبيعية فاصلة بين أمم وحضارات[60] تعبر عن الفارق الوجداني بين الكتلتين البحر المتوسط فصل بين دينين وحضارتين، كما جعل من المحيط الأطلنتي حد المغرب الطبيعي غربا.

علاوة على الحدود يلعب البحر في مغرب القرنين 18و19دورا مهما باعتباره متنفسا لكل التجارات والقلاقل المناوئة للسلطة ، ولهذا يشير المغاربة إلى الواجهة البحرية بأوصاف - تختلف حسب جهة الواصف – ويتفقون على الرؤوس وجغرفة السواحل بأسماء تدل على المعرفة المغربية منها[61]:

الاسم المغربي		مقابله
رأس فونت	=	رأس فونتي بنواحي أكادير .
قاب كنطيل	=	رأس اسبارطيل بالشمال المغربي .
قاب مبخضور	=	رأس بوجدور .

[56]) إميل لودفيغ ،البحر المتوسط، ترجمة عادل زعيتر، دار المعارف مصر 1952،ص52.
[57])فرناند بروديل، الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية،ج2تع مصطفى ماهر،دار الفكر للدراسات والنشر،القاهرة 1993،ص479.
[58])عبد العزيز اشهبار ، المغاربة والبحر حفر في الذاكرة ، مجلة المغرب وأوربا (بالفرنسية) ع9س1996نص86-85.
[59]) نقصد بنظرة المركز العواصم المغربية فاس ومراكش، انظر عمر عمالكي :البحر في ذهنية فقهاء المغرب،م س،ص94.
[60]) عبد الله ميكاني ، لواقح الأسرار في حديث البحر والأسفار ،مخ،خ ع الصبيحية ، ص09و10.
[61]) أغلب هذه التسميات واردة عند عبد الله ميكاني الرباطي،لواقح الأسرار في حديث البحر والأسفار ، مخ،خ ع الصبيحية ،ص09و10.

أشقار = ميناء بجبل أشقار قرب طنجة.

سبتة أكراضيس = سبتة .

طيط القديم = نواحي بحرية على مقربة من اقليم الجديدة .

برج الواليد = برج الواليدية نواحي مدينة أسفي.

أزيل = مدينة أصيلة المغربية

ليل نوبي = رأس جوبي بالصحراء المغربية

كما سمت مناطق قريبة من المغرب بالجهة الأوربية :

لجبوكة = لشبونة

قاب صانط مري = رأس سانت ماريا

قاب اشبتين = رأس لاشابين

جبل الطر = جبل طارق

ويجدر بنا ذكر أن المغرب استخدم الواجهة البحرية علميا كمتلقي ، فلم يحاول أن يؤسس معارفه الخاصة إلا بشكل تسميات لرؤوس أطلنطية خاصة وقبل بالبحر المتوسط مسرحا للتبادل الثقافي والصراع ، فلا يعرف هل الجغرافي العربي هو من سماها أو غيره؟

ــ تجديد ثقافة السواحل:

حملت الواجهة البحرية les façades maritimes ثقافة متنوعة المشارب ومختلطة العادات والقيم، نظرا لتتابع الحركات البشرية ودورها في ترسيخ نمط عيش وتقاليد الفئة الغالبة على المكان الذي تدور فيه الأحداث. ومع ذلك فإن الضرورة اقتضت أن تظهر ثقافات متجددة تهدم ما سبق معززة مجهودها بحمولات دينية و أسطورية ولسانية غير موروثة وإضفاء الطابع الجديد جدة حامليه على المجال البحري، كما لا يخفى على المؤرخ المهتم ما للعوامل الطبيعية من دور في تكوين الواجهة البحرية :

" كانت هناك حدود بحرية للحضارات لها من الثبات ما للحدود البرية على صفحات القارات، كانت كل حضارة تود أن تكون سواء في البحر أو البر في حضن دارها، لكن الجيران يتزاورون " [62]

[62] فرناند بروديل :الحضارة المادية ،م س،ج1،ص552.

وهذا شأن المغرب المتقلب ما بين أسر حاكمة تتغير نظرة كل أسرة إلى السواحل،من الفتح الإسلامي حتى دولة أولاد مولاي علي الشريف.ما بين دول تحاول اختراق الواجهة والقارة على السواء وما بين دول تحاول تثبيت المن في ربوعها ودرء خطر ما وراء البحار إلى أن جاء المنصور السعدي ومن بعده،حيث لعبت الواجهة البحرية دورا تنفيسيا طلائعيا في الحياة السياسية المغربية بتقوية جانب أمير وإضعاف آخر داخليا وخارجيا وتنطبع كل هذه التجديدات في العقلية المغربية .

ـــ السواحل في الذهنية المغربية: [63]

تشير الذهنية إلى اكتشاف الأنا والغير والزمان والمكان وتحديد المكانة والموقع.حيث تظهر هذه البنى عبر تقاطعات تاريخية ،كامنة في النفوس والكنانيش المؤلفة عبر الزمن والمعبر عنها في الغناء والأدعية وغيرها...ولما كان القرن 17و18 فترة حكم الدولة العلوية الشريفة، التي انطلقت من سجلماسة في تخوم الصحراء الشرقية للمغرب "إنها سجلماسة مدينة لايعيبها شيء فليست مفتوحة على البحر فيطرقها غاز"[64]

فعقلية النخبة توثر المجال القاري المغلق في بناء الدولة وعقلية العلماء الموغلة في التقليد تنأى بنفسها عن البحر وتدعوا إلى مجانبته كما نفر العامة من البحر باشتداد الغزو الأيبيري عليها بين الفينة والأخرى[65] وقد شكل السلاطين مصدرا خصبا لعقلية السواحل ،ومنهم محمد بن عبد لله الذي اهتم بالساحل لتعويض العجز المالي للمغرب المتقلب فلاحيا وأحس السلطان بأهمية التجارة البحرية لموارد بيت المال وقوة الدولة. وهناك من العلماء من اعتبر الساحل ذو أهمية كبرى "ابن السماك العاملي في رونق التبحير في السياسة" إلى جانب الحسن اليوسي الذي أنكر على السلطان منع تسليح ساكنة الشمال،ولكن أغلب علماء المغرب يستبعدون البحر في مسائلهم .

أما العامة فالبحر لا يغشاه غلا المنقطع والمفقود وجعلت الواجهة مقابر وحصون أو مزارات أولياء السواحل أصحاب الخوارق.

[63] خصصنا بحث ورسالة السلك الثالث لدراسة "البحر في ذهنية فقهاء المغرب"، نوقش في رحاب كلية الاداب والعلوم الانسانية ،أكدال الرباط 2006.

[64] مراسلات المولى الشريف مع العثمانيين، انظر تاريخ الضعيف ، تحقيق محمد العماري طبعة دار المأثورات الرباط ،ص 24.

[65] يراجع عبد المجيد القدوري في :المغرب وأوربا مسألة التجاوز ، م س ، ص



الحالة التي آلت إليها بعض الوثائق بالمغرب

ـــ البنيات الاجتماعية المميزة للمدينة البحرية:

المجتمع داخل المدينة البحرية منطو على نفس العناصر، المجتمعية والمتكتلة في الأنماط التالية:

– مختلفة ومتنوعة تشكل تأليفا من جهة في قوة كل مجموعة ومن جهة أخرى تقوية كل مجموعة وحضورها بالنسبة للأخر.

نجد في قمة الهرم الاجتماعي، البورجوازية التي تقوم بالتجارة والمفاوضة وتكرس نفسها للعب دور الوسيط داخل المدينة البحرية، والقيام بالتصدير والاستيراد والتوسع بناء وإنشاء السفن واستغلال الهامش المحيط بالمدينة.

- يضم تجار متخصصون وذوي تجارة متنوعة أو مختلطون تجاريون.

- تضم أفراد مرتبطين بالسياسة. والتدبير.

كما يوجد فريقgroupe خاص لعالم البحر منهم مالكي السفن، الذين ينحصر دورهم في الربط الطبيعي لعمليات البحر والقرصنة، والاتجار والصيد لنفسها.

بناء السفن هي مقاولة تستوجب/ تستلزم استثمارا في إعداد القبطان التجاري ومجهودا لهيئة من الضباط والبحارة الذين سيقومون بهذه المهمة.كما يتطلب حضور فئة أساسية من العمال المؤهلين، ومتواجدين فعليا بالمنطقة بالبحرية.يتعلق الأمر بالتجار المسيرين للأعمال ومجندين لعناصر أخرى كالكلفاطيين.....

عموما المدينة البحرية تجمع فريقا متكاملا ولابد منه من البحارة ،وفريقا آخر غير بعيد مختلط على رأس تراتبيته الرياس والقبطان والملاح وأخيرا يوجد بحارة غير مؤهلين.

ــ الخصوصية المؤسسية (تنظيمية) للمدن البحرية

الانفراد بحكومات المدن البحرية يكون تحت تأثير مباشر للنخب المتمركزة في عالم المقاولة التجارية أو القرصانية بالمدينة (أصحاب السفن الرياس التجار الولاة..) القادرون على توجيه السياسة لمصالحها أو لسياسة الدولة، على كل اقتصاد أصيل ومجتمع خاص. تبرز واقعية تحت تأثير ثقافات أخرى.

المثير للانتباه هو أن الثقافة البحرية،تنمو في عالم مختلف،أحدثت كأنها ثروة لشباب فقراء من حيث الثقافة والامتداد الشعبي ،مقصيين من قبل المتدينين عزاؤهم الوحيد التضامن والعيش في شكل هيئة (في السواحل وعلى السفن- أغاني .وطقوس خاصة..)إنها ثقافة رجال البحر.

علاوة على تفرد لغة تقنياتهم وأنشطتهم فالمدينة البحرية غير المدينة القارية، ليس فقط على مستوى الحرية و الحداثة التي تأطر حركية قبول الجديد واندماج المؤثرات الأجنبية وتداخل الأجناس، للانتقال من المختلف إلى المتشابه. إنها تشبه العنصر الخامس في النموذج الحضري.

وخلاصة القول أن الواجهات والمدن الساحلية حملت على عاتقها التكييف والمواكبة السريعة والدائمة للتطورات التقنية والتدبيرية، ومجاراة العقلية والذهنية الجمعية للبحار والمحيطات العالمية. استجابة للقوة الدولية والضغوط المستمرة والمتجددة بما يسمى عمل البحر[66].

[66]قطعنا أشواط كبيرة في كتابة عمل البحر أو القوانين المنظمة للعمل البحري والسياسة البحرية بالمغرب. عمل مرقون منذ 2007 إلى اليوم في انتظار المراجعة ثم الطبع.

مواقع ومدن تاريخية







المعالم الأثرية بمدينة مكناس : آليات الصيانة والإنقاذ

سعيد عبيدي
طالب باحث في التراث
بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
سايس فاس

تعتبر مدينة مكناس بمعالمها التاريخية ومبانيها الأثرية المتنوعة ما بين الأسوار، الأبواب، الأبراج والقصور وغيرها، إحدى العواصم التاريخية للمغرب. ومدينة عريقة تشكل نموذجا معماريا متميزا للمعمار المغربي الأصيل المتسم بالإتقان في الصنعة والتحكم في التقنية والمزج بين الفنية والجمالية، مما جعل هذه المدينة السلطانية تصنف في 7 دجنبر 1996 تراثا عالميا من لدن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة المعروفة اختصارا باليونسكو.

وقد عرفت مدينة مكناس منذ بداية الألفية الثالثة ترميم عدد من المعالم التاريخية للمدينة، نتيجة الإهمال الذي طال غالبية المباني الآثرية المقيدة في عداد الآثار بحاضرة مكناس. مما أدى إلى تدهور كثير من المعالم الآثرية لمدينة الإسماعيلية وانهيار بعضها، وهذا ما جعل منظمة اليونسكو

توجه إنذارا وتهدد بسحب الاعتراف بمدينة مكناس كتراث عالمي للإنسانية إذا لم يتم ترميم معالمها التاريخية المقيدة في عداد الآثار.

وتهدف مباحث هذا المقال الموسوم ب "المعالم الأثرية بمدينة مكناس: آليات الصيانة والإنقاذ" إلى التعريف بتراث مدينة مكناس الغني والمتنوع الروافد والجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الموروث التاريخي والأثري للحاضرة الاسماعيلية.

أولا: الموقع الجغرافي والتطور التاريخي لمدينة مكناس.

1) الموقع الجغرافي لمدينة مكناس.

تقع مدينة مكناس في المنطقة الجنوبية الوسطى ويحدها شمالا إقليمي سيدي قاسم والقنيطرة، وجنوبا إقليما إيفران وخنيفرة، وشرقا مدينة فاس وغربا إقليم الخميسات. وتبعد مدينة مكناس عن العاصمة الإدارية الرباط بحوالي 140 كلم. وتتميز المدينة الإسماعيلية بموقعها الاستراتيجي الهام على شكل هضبة متوسطة الارتفاع بين بداية سلسلة جبال الأطلس المتوسط ومقدمة جبال الريف شمالا (منطقة زرهون)[67].

وقد اكتسى موقع مدينة مكناس أهمية بالغة من الناحية الإستراتيجية والاقتصادية أهلها لتضطلع بأدوار مهمة منذ بداية تاريخها، وعلى مر فتراته المتعاقبة، حيث اعتبرت هدفا أساسيا لكل الدول المتعاقبة على حكم المغرب، وكذلك المستعمر الفرنسي[68].

2) لمحة تاريخية عن مدينة مكناس.

عرفت منطقة مكناس تعاقب عدة عهود، حيث تميز كل عهد عن سابقه كالعهد الإدريسي، المرابطي، الموحدي والمريني وصولا إلى العهد العلوي الذي عرفت فيه مدنية مكناس أوج ازدهارها خلال عهد السلطان العلوي المولى إسماعيل (1672-1727م).

وفي هذا السياق، فقد كانت مدينة مكناس قبل حكم المرابطين عبارة عن مجموعة من المدائن المتفرقة[69]، تقع جلها شمال موقع المدينة الحالية، استوطنتها عناصر بشرية من قبيلة مكناسة الزناتية، أضيفت إليهم عناصر من القبائل وهي ورزيغة وعوسجة.

67- المصطفى بنفايدة، مكناس جولة في التاريخ والمعالم، شركة الطباعة برانت شوب، مكناس، ط. 2، 2008، ص 5.

68- المرجع نفسه، ص 7.

69- ابن غازي: الروض الهثون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الملكية، الرباط، ط. 3، 1999، ص 14.

وفي عهد المرابطين تمت السيطرة على مدائن مكناس، وذلك بعد تأسيس المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين حصن تاكرارت*، الذي يعتبر النواة الأولى لمدينة مكناس(70). ومع مرور الزمن أصبحت الحاضرة المكناسية تحتضن عدة أسواق وأحياء ومساجد. ومما لا يزال قائما منها حتى اليوم: حومة كناوة** ودرب الفتيان وغيرها.

وأما في العهد الموحدي فقد دخلت مكناس في مرحلة التمدن والحضارة، فزودت بالماء الذي جلب إليها من عين تاكما وذلك باستخدام قنوات من حجر متقنة البناء توضع في جوفها أنابيب الرصاص لحماية القاطنين بالمدينة من كل دنس(71)، فضلا عن تشييد أربع حمامات هي: حمام الكدية، حمام المولى عبد الله بن أحمد، وحمام الجديد والحمام الصغير(72). وفي إطار توسيع المدينة وتزويدها بالمرافق العامة والأركان العمرانية، أحدث الموحدون أحياء جديدة، قد يكون من بينها حي سيدي أحمد بن خضراء. فضلا عن تأسيس دار الأشراف حيث يوجد مقر المشرف على الجبايات(73).

مع حلول العقد المريني اندثرت حوائر مكناس الواقعة على ضفاف نهر ويسلان وبوفكران وتحولت إلى جنات مغروسة، فنزح أهلها إلى المدينة الجديدة للاستقرار في أحيائها، فشرع أبو يوسف في بناء قصبة جديدة بمدينة مكناس وتشييد جامعها المعروف حاليا بجامع للاعودة، فضلا عن تأسيس المدرسة الفيلالية والمدرسة البوعنانية ومدرسة العدول. وقد امتازت المنشآت المرينية بجنوحها إلى المزج بين الطابعين الفني المغربي والأندلسي. وفي عهد الوطاسيين والسعديين لم تشهد مكناس مشاريع عمرانية جديدة، نتيجة المرحلة القصيرة للحكم الوطاسي بالمغرب واتخاذ السعديين لمدنية مراكش عاصمة لهم فضلا عن الانشغال بصد الغزو الايبري للسواحل المغربية، الذي جعل الاهتمام ينصب على المدن الساحلية أكثر من الحواضر الداخلية.

70- العلامة محمد المنوني: التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور، مجلة الثقافة المغربية، ج 7، 1972، ص 21.

71- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، 1980، ص 36. نقلا عن المصطفى بنفايدة، مكناس جولة في التاريخ والمعالم، مرجع سابق، ص 33.

72- ابن غازي: مرجع سابق، ص 25.

73- مدينة مكناس تاريخ ومعالم، منشورات ودادية رؤساء المصالح الإدارية بمكناس، رجب 1408هـ/ مارس 1988، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

* تاكرارت: تعني بالأمازيغية الحصن أو المحلة.

** حومة كناوة: تعرف اليوم بحومة الصباغين، وقد سميت بحومة كناوة نسبة إلى عناصر سودانية من الجيش المرابطي أسكنوا بها.

تحول مسار مدينة مكناس منذ أن اتخذها المولى إسماعيل (1672-1727) عاصمة لملكه، حيث أن اهتمامه بتشييد معالمها لم يكن أقل شأنا من اهتمامه بترسيخ أسس العلاقات الدبلوماسية مع دول العالم شمالا وجنوبا، وبذلك جعل منها مفخرة العصر لدرجة جعلت المؤرخ الفرنسي سان ألون سفير لويس الرابع بقوله: "لقد كان المولى إسماعيل يريد أن يحدث لأمته آية من آيات ملكه"(74).

ثانيا: النصوص التشريعية والقانونية لحماية التراث المغربي.

1) المقاربة الاستعمارية لحماية التراث المغربي (1912-1956):

عرفت المدن المغربية تطورا كبيرا بعد توقيع معاهدة الحماية الفرنسية في 30 مارس سنة 1219، نتيجة ارتفاع عدد السكان الحضريين – بشكل لافت للانتباه- الذين قدر عددهم ب 650 000 نسمة سنة 1914م(75). مما أجبر السلطات الاستعمارية الفرنسية تعمل على التخطيط والتنظيم والتقنين للتحكم في النمو الديمغرافي السريع للمراكز الحضرية المغربية آنذاك(76). وذلك ما يتجلى في إحداث الحماية الفرنسية لعشر مدن جديدة* بالقرب من المدن العتيقة الكبرى بهدف ترسيخ الوجود الفرنسي بالمغرب عن طريق "الضبط الأمني للتجمعات الحضرية الكبرى وتسهيل استغلال وترحيل خيرات البلاد"(77).

وقد ارتكزت سياسة المقيم العام الجنرال ليوطي (1912-1925م) لتطبيق سياسته في ميدان التعمير حول العمل على الفصل بين المدينة العتيقة والمدينة الأوربية الحديثة، وإعادة إحياء المدينة عن طريق مدها بالمرافق الضرورية، فضلا عن تجريب المدن الجديدة(78).

وفيما يخص النصوص التشريعية المرتبطة بحماية التراث خلال عهد الحماية فقد صدر ظهير 26 نونبر 1912 المتعلق بحماية المعالم التاريخية لبلادنا. وفي 13 فبراير 1914 صدر ظهير شريف آخر أحدث ما يسمى ب"مناطق الحماية الفنية"(79). فضلا عن ظهير 21 يوليوز 1945 المرتبط

74- مدينة مكناس تاريخ ومعالم، منشورات ودادية رؤساء المصالح الإدارية بمكناس، مرجع سابق.
75- عبد الواحد مهداوي، حماية التراث العمراني بالمغرب بين المقاربة الدولية والرهانات الوطنية، مجلة دفاتر جغرافية، العدد 3-4، الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، 2007، ص 8.
76- المرجع نفسه، ص 8.
77- المرجع نفسه، ص 9.
78- المرجع نفسه، ص 9.
* المدن 10 الجديدة: الدار البيضاء، الرباط، مكناس، فاس، مراكش، صفرو، تازة، وزان، أكادير والقنيطرة.
79- عبد الواح مهداوي: مرجع سابق، ص 9.

بالتعمير وكذلك الشأن بالنسبة لظهير 30 يوليوز 1952. وأما في 30 شتنبر 1953 فقد صدر ظهير آخر يتعلق بالتجزيئات والتقسيم العقاري[80].

2) الإطار التشريعي للمحافظة على تراث مغرب ما بعد الاستقلال.

بعد حصول المغرب على الاستقلال سنة 1956، ظل العمل في مجال حماية التراث التاريخي والآثري ببلادنا مستمر بظهير 1945 المرتبط بالمحافظة على المعالم والمباني والمواقع والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات وحماية المدن العتيقة والهندسة المعمارية القروية[81]. إلى حدود بداية الثمانينات من القرن الماضي، التي تمت خلالها المصادقة على الظهير الشريف رقم 1.80.341 بتاريخ 17 صفر 1401 (25 دجنبر 1980)، الذي يتضمن الأمر بتنفيذ القانون رقم 22.80 المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات. ويتكون هذا الظهير من 62 فصلا[82].

والجدول الآتي يوضح الأجزاء المكونة للقانون رقم 22.80:

***جدول رقم 1*: مضمون الأجزاء التسع للقانون رقم 22.80**[83].

الجزء	ما ينص عليه
الجزء الأول	أحكام عامة خاصة بالعقارات والمنقولات
الجزء الثاني	تقييد المنقولات والعقارات
الجزء الثالث	ترتيب المنقولات والعقارات
الجزء الرابع	إخراج المنقولات والعقارات
الجزء الخامس	حق الشفعة المخول للدولة
الجزء السادس	حماية التحف الفنية والعاديات المنقولة
الجزء السابع	أعمال الحضر والاستكشاف
الجزء الثامن	إثبات المخالفات وإصدار العقوبات
الجزء التاسع	أحكام مختلفة وانتقالية

ثالثا: المعالم الأثرية المقيدة في عداد الآثار بمدينة مكناس وآليات الحفاظ عليها.

1.المباني التاريخية المقيدة في عداد الآثاربمدينة مكناس.

80- المرجع نفسه، ص 9.

81- المرجع نفسه، ص 10.

82- الظهير الشريف رقم 1.80.341 بتاريخ 17 صفر 1401 (25 دجنبر 1980) يتضمن الأمر بتنفيذ القانون رقم 22.80 المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات، الجريدة الرسمية عدد 3564 بتاريخ 18 فبراير 1981، ص 73.

83- الجريدة الرسمية عدد 3564 بتاريخ 18 فبراير 1981، ص 73.

منذ عهد الحماية الفرنسية تم تقييد وترتيب عدد من المباني التاريخية لمدينة مكناس. وتجب الاشارة إلى تقييد المنقولات والعقارات وترتيبها يخضع للنصوص التنظيمية المعمول بها وطنيا. وجميع المعالم الآثرية لمدينة مكناس المقيدة في عداد الآثار بمدينة مكناس تم تدوينها خلال عهد السيطرة الاستعمارية الفرنسية ما بين 1912 و 1956. والجدول الآتي يبين المعالم والمباني والمواقع التاريخية المقيدة في عداد الآثار بمدينة مكناس:

جدول رقم 2: المباني والمواقع التاريخية المقيدة في عداد الآثار بمدينة مكناس[84]

المعالم الآثرية	نوع المعلمة	تاريخ الترتيب	رقم الترتيب
أكدال مكناس	مجموعة آثرية	1 يونيو 1955	41
باب البرادعيين	باب	18 أكتوبر 1914	03
باب بوعماير	باب	18 أكتوبر 1914	03
باب البطيوي	باب	30 غشت 1932	30
باب القاري	باب	30 غشت 1932	30
باب القشلى	باب	18 أكتوبر 1914	02
باب الخميس	باب	18 أكتوبر 1914	04
باب القصدير	باب	30 غشت 1932	30
باب الجديد	باب	18 أكتوبر 1914	03
باب كبيش	باب	30 غشت 1932	30
باب لالة خضرا ء	باب	30 غشت 1932	30
باب منصور	باب	18 أكتوبر 1914	02
باب تيزيمي	باب	18 أكتوبر 1914	03
برج بيبي عيشة	برج	30 غشت 1932	30
برج الماء	برج	30 غشت 1932	30
برج المرس	برج	30 غشت 1932	30
الدار البيضاء	قصر	18 أكتوبر 1914	05
جنان بنحليمة	حديقة	18 أكتوبر 1914	08
مربط مولاي اسماعيل	مربط	18 أكتوبر 1914	06
فندق الحناء	فندق	17 فبراير 1923	22
مستشفى لويس	مصحة	19 نونبر 1920	14
قبة الخياطين	قبة	23 مارس 1918	10
المدرسة البوعنانية	مدرسة	17 فبراير 1923	22
المدرسة الفيلالية	مدرسة	17 فبراير 1923	22
مدينة مكناس	مجموعة آثرية	7 يناير 1927	25
كتاتيب المدينة	الكتاتيب	17 فبراير 1923	22
صهريج السواني	مجموعة آثرية	19 أكتوبر 1914	07
ساحة الهديم	مجموعة آثرية	30 غشت 1932	30
الأسوارالمحاطة بأكدال[85]	أسوار	30 غشت 1932	30
سقايات المدينة الثمانية	مجموعة آثرية	30 غشت 1932	22

[84] -Source : SDAU de Meknés, 1955.

[85]- عبد الواحد مهداوي، دليل التراث الثقافي والطبيعي بالمغرب، منشورات مرايا، الطبعة الأولى، 2011، ص 208.

1.آليات الحفاظ على المباني التاريخية لمدينة مكناس.

رغم الإهمال الذي طال العديد من المباني التاريخية المقيدة في عداد الآثار بميدنة مكناس لسنوات، فإن الجهات المعنية بالحفاظ على المعالم الآثرية تبذل جهودا لإعادة الاعتبار للتراث التاريخي لمدينة الاسماعيلية. وذلك ما يتجلى في أشغال الترميم التي شملت عدد من المعالم التاريخية للمدينة.

وبالنسبة للجهات المتدخلة في المحافظة على المآثر التاريخية لمدينة مكناس فإنها تتجلى في مديرية التراث الثقافي والمجلس الإقليمي للمدينة والجماعة الحضرية التي تبحث عن موارد إضافية للترميم وذلك بتخصيص جزء من الفائض في ميزانيتها لإصلاح المآثر التاريخية أو بأخذ قروض أو تلقي دعم دولي من طرف المؤسسات الدولية المهتمة بحماية التراث.[86]

وسنعمل في هذا المبحث على إعطاء نماذج لبعض المعالم التاريخية التي شملها الترميم بمدينة مكناس.

أ. ترميم باب منصور:

تم ترميم باب منصور يوم 18 نونبر 1994، وقد شمل ترميم هذا الباب ما يلي:

- ❖ تبليط وصباغة الواجهات الداخلية للباب باللون الإسماعيلي.
- ❖ ترميم النقوش والزخارف الموجودة على الواجهة الرئيسة للباب.
- ❖ ترميم وإعادة تركيب البوابات الخشبية للباب كما كان الحال عليه من قبل.
- ❖ ترميم بوابات البيوت الداخلية.
- ❖ تزليج أرضية الفضاء الداخلي والخارجي للباب بالزليج التقليدي.
- ❖ ترميم الأعمدة الموجودة داخل وخارج الباب.
- ❖ إنارة فضاء الباب من الداخل والخارج، من أجل تزيينه وإبراز مكوناته الهندسية.[87]

[86]- لقاء مع السيد رئيس مصلحة المآثر التاريخية بالجماعة الحضرية لمكناس، يوم الجمعة 18 فبراير 2011.
[87]- باب منصور العلج، معلمة في خدمة الثقافة بمكناس، منشورات بلدية المشور الستينية، شركة دار الصحافة، ص 7.

ب. ترميم المعالم الآثرية لمدينة مكناس خلال الألفية الثالثة:

شملت أعمال الترميم المنجزة لإعادة الاعتبار للتراث التاريخي بمدينة مكناس عدد من المعالم الآثرية للمدينة يوضحها الجدول الآتي:

جدول رقم 2: ترميم بعض المعالم التاريخية لمدينة مكناس[88]

العملية	التكلفة المالية بالدرهم
متحف دار الجامعي	200000 درهم
برج بلقاري	860 ألف درهم
باب جامع الأنوار	300 ألف درهم
صومعة جامع السنتيسي	196 ألف درهم
دار الباشوات	1697123 درهم
مكتبة الجامع الكبير	600 ألف درهم
باب المراح	1200000 درهم

تجب الاشارة في الآخير إلى أن غياب برنامج متكامل لترميم المعالم التاريخية بمدينة مكناس يجعل بعض المباني الآثرية تتعرض للشويه أثناء ترميمها وهذا ما وقع لباب كبيش الذي كان يتوفر على مدخل واحد وبعد أن هدم في دجنبر 2008 أصبح يتوفر على ثلاثة أقواس.

خلاصة القول في هذا المقال، هو أن إعادة الاعتبار للتراث التاريخي والأثري لمدينة مكناس يتطلب القيام بأعمال فورية لترميم المآثر التاريخية وحفظها من الضياع، فضلا عن تفادي بعض الحوادث المفجعة الناتجة سقوط بعض المباني التاريخية نتيجة الإهمال الذي يطالها. وغني عن البيان أن المحافظة علي المعالم التاريخية وصيانتها بمدينة مكناس لن يتم إلا بتعاون جميع الأطراف المعنية، وهي مديرية التراث الثقافي والمفتشية الجهوية للمباني التاريخية والمجلس الإقليمي للمدينة، فضلا عن الجماعة الحضرية بمكناس ومكونات المجتمع المدني. على اعتبار أن هذه المعالم تعبر عن ذاكرتة التاريخية للحاضرة الإسماعيلية وهوية الأجيال السابقة والحالية في الزمن الراهن، كما أن هذه المعالم تشكل قاطرة حقيقية للتنمية المستدامة من أجل الرقي الاقتصادي والاجتماعي لساكنة مكناس. لذلك يجب علينا الحفاظ على هذه المآثر التاريخية الثمينة التي تدل على وجودنا التاريخي.

[88]- المندوبية الجهوية لوزارة الثقافة. نقلا عن جريدة الشرق الأوسط، الأحد 18 شوال 1423 هـ- 22 ديسمبر 2002، العدد 8790.





عبد الله النملي
كاتب وباحث

آسفي..المدينة الضّاربة في أعماق التاريخ



توطئة:

الحب ليس محصورا دائما بين كائنين بيولوجيين، بل هناك أيضا حب للأمكنة والمدائن. والكتابة عن المدن متعة آسرة، لا يعادلها إلا قصائد العشق أو أغاني الفرح. وإذا كانت هناك مدنا لا تَستهوي زوارها ولا تُحرك لهم في النفس ساكنا، فإن مدنا أخرى تستحيل الحياة من دونها بلا معنى. فهناك مدن تحبها، وأخرى تنفر منها، وثالثة تلبسك بمجرد أن تطأها حتى تنقلب حياتك رأسا على عقب وكأنما خُلقت حينها. هذه المدن هي التي تستحق أن تتوقف عندها بالتفكير والحنين والعشق. آسفي، حاضرة المحيط، كما أسماها بن خلدون، واحدة من تلك المدن الرائعة التي تسكن التاريخ البشري، بل هي حكاية أسطورية تتردد تفاصيلها الساحرة في زوايا الحضارة الإنسانية. آسفي، تاريخ عريق، وصفحة رائعة من الحضارات والشعوب والديانات التي تعاقبت على هذه الأرض التي تعشق التنوع وتحتضن التعدد. هي بلا شك، أيقونة التسامح وعنوان الانفتاح، بكل ما تحتويه من حضارة ضاربة في أعماق التاريخ البشري.

فكل من يزور آسفي يَعز عليه فراقها، وكل من عرفها تعلق بها، إنها المدينة الباذخة في الفرح والقَرح، تُعطي وتجزل في العطاء، ولا تنتظر مقابلا لقاء ذلك. آسفي مدينة فاتنة لا يخضع لجمالها كل من رآها فقط، بل يُتَيّم بها حتى من سمع عنها ووصله صيت أخبارها. هي مدينة ضاربة في القدم، أنشئت على وادي الشعبة، منبع الطين و الخزف الذي اشتهرت به المدينة. لا يعرف بالضبط العصر الذي تأسست فيه آسفي، فهي قديمة قدم التاريخ نفسه، وقد حيكت حول تأسيسها واشتقاق اسمها روايات متضاربة. ولعل الأحفوريات التي اكتشفت بجبل ايغود شرق المدينة سنة 1962 ، والمتكونة من بقايا عظمية بشرية وحيوانية وأدوات مختلفة تفيد بأن الإنسان عمّر آسفي قبل خمسين ألف سنة. ولا غرو في ذلك، فالمدينة تضم مجموعة من المآثر التاريخية والقلاع التي تشهد على تاريخها العريق، وورد اسمها ضمن أمهات المعاجم، وذكرها ابن بطوطة في مذكراته الشهيرة التي ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة. وزارها وزير غرناطة لسان الدين بن الخطيب، وأعجب بها "الدون إمانويل" ملك البرتغال، فشيّد بها كاتدرائية بهندسة فريدة، ووقّع ثلاثة من أبنائها على وثيقة الاستقلال، تقف أسوارها شاهدة على ماض مجيد، حتى وصل ساحلها القائد العربي عقبة بن نافع، ووصفت بأقدس مناطق المغرب، تُنبت أرضها الصلحاء كما تُنبت العشب، وأنشأ بها الشيخ أبي محمد صالح مؤسسة الركب الحجازي، حتى باتت مركز إشعاع علمي. ومنها أطلق سيدي محمد بن سليمان الجزولي الإشعاع لطريقته الصوفية.

ونظرا لأهمية آسفي، فقد شكلت وجهة مفضلة للعديد من الأسر الأندلسية والعربية حتى وصفت بأنها مدينة دبلوماسية يقطنها السفراء والقناصل، ويفد عليها المبعوثون البريطانيون قبل التوجه إلى مراكش، وترسو بها السفن الأوربية التي ترغب في إبرام الاتفاقيات الدولية بالعاصمة مراكش. وازداد اهتمام السلاطين بآسفي فأقاموا بها دارا لضرب السكة ما بين 1716 و 1830م. وقديما جعلها المرابطون مرسى الإمبراطورية المرابطية، ومركزا لتجميع قوافل الذهب الإفريقي، والبرتغاليون جعلوها ميناء رئيسيا لتصدير الحبوب والسكر والصوف.

ــ لآسفي ألف حكاية مع البحر..

ولمدينة آسفي الجوهرة الراقدة على شواطئ المحيط الأطلسي، وَلع لا يُضاهى بالشأن البحري قديمه وحديثه، خَبَرت آسفي البحر وأهواله، وفنونه وعلومه، كما كان السفر عبر البحر منذ القديم، مهنة للعديد من أبناء آسفي الذين تعلموا أصوله، وورثوها لأبنائهم، كما أفلحت المدينة في تَحدّي

أمواج البحار، لتتحول بذلك إلى أول ميناء للصيد البحري بالمغرب، حيث اشتهر بها الربابنة والرياس الكبار، حتى أضحت عاصمة العالم في صيد السردين، مما جعلها تُغْري بلذائذ أسماكها جيراننا فجاؤوها محتلين. و لآسفي ألف حكاية مع البحر، حفظ منها الزمان ما تيسر والكثير منها ضاع واندثر. ولمرسى آسفي أدوار في الملاحة البحرية القديمة، حيث تُعتبر من أقدم موانئ المغرب، و من بين ثمانية موانئ فقط فُتحت للتعامل التجاري مع الخارج، حيث تزعمت حركة الاتصال بالعالم الخارجي منذ القديم. ذلك أن سكان آسفي لم يكونوا يعيشون في معزل عن حضارة الشعوب المجاورة، وخاصة شعوب أوربا ومنطقة البحر المتوسط، بل كانت لهم صلات وعلاقات متعددة مع هذه الشعوب. و ما زلنا حتى الآن نلاحظ تشابها في عدد كبير من عاداتهم وكلمات لغاتهم، ونجد هذه الظاهرة كذلك في المفردات الخاصة بالبحر.

في كتابه "بصمات المحيط الأطلسي في تاريخ وعمران حاضرة آسفي" يقول الباحث والمؤرخ ابراهيم كريدية عن آسفي (منذ اليوم الأول من تأسيسها، قبل زمن بعيد، موغل في القدم لا يعلم قدره إلا الله، اختارت أن تتموضع وتستقر وتتوسع عبر ما تعاقب عليها من عصور و دول، على حرف خليج بحري دائري وواسع، يطل على هذا المحيط الصاخب (..) في بعض الروايات التاريخية يقترن اسم مدينة آسفي بالبحر، وفي ذلك تأكيد منها، لما بين هذه الحاضرة وظهيرها البحري، من وثيق الصلة في كل العصور (..) وقد التصق ذكر آسفي كموقع بحري وكمرسى بالاكتشافات والمغامرات البحرية، بما فيها القديمة والغابرة والحديثة، ونذكر منها ثلاث رحلات متباعدة في الزمان، وهي رحلة حانون، التي كانت آسفي واحدة من محطاتها الرئيسية، ثم رحلة المُغَررين وكانت آسفي خاتمتها الحزينة، وأخيرا رحلة رع، وكانت آسفي نقطة انطلاق نجاحه) . ويضيف الباحث كريدية بأن (مدينة آسفي، تدين في وجودها و استمراريتها منذ غابر الأزمان و حتى اليوم، وفيما عرفته وتعرفه حتى اليوم من ازدهار تجاري وإشعاع اقتصادي وتوسع عمراني، إلى ميناءها و ما يشهده قديما وحديثا و راهنا، من حركات وضع و وسق تجاريين).

لقد لعب ميناء آسفي دورا كبيرا في تاريخ المغرب، على اعتبار أنه كان نقطة عبور أساسية للعديد من الشعوب الباحثة عن موطئ قدم بالقارة الإفريقية، كما كان مَعْبَرا أساسيا للمغامرين والباحثين عن المواد الأولية والأسواق التجارية، مما جعل سلاطين المغرب يهتمون به. ويرى الأستاذ محمد بالوز في كتابه " صفحات من تاريخ مدينة آسفي " أن (موقع آسفي كان معروفا عند الفينيقيين، لأنه يضم أقدم ميناء افريقي على الساحل الأطلنتيكي، نظرا لوجوده في موقع يمكن لأي مركب

قادم من البحر المتوسط، أن يكون ذا حظ وافر في الاندفاع تجاه خط عرض المحيط الأطلسي. فمباشرة خارج آسفي يمر تيار الكناري الذي يهب من الشمال الشرقي في اتجاه الجنوب الغربي، حاملا كل ما يطفو على الماء ويدفع به تجاه القارة الأمريكية) .

وعندما تخلصت آسفي من السيطرة البرغواطية على يد الدولة المرابطية، أصبحت لها شهرة عالمية، لكونها شغلت لفترات معينة مرسى العاصمة السياسية مراكش، حيث كان لابد للسفراء والقناصل الذين يصلون إلى مراكش من النزول بآسفي، ثم الانطلاق منه إلى مراكش. وفي عهد الدولة الموحدية، عرفت آسفي نهضة عمرانية، تمثلت في كونها أصبحت مرفأ تجاريا وعسكريا مهما لاستقبال السفن القادمة من الأندلس. و خلال القرن الرابع عشر الميلادي عرفت مرسى آسفي ازدهارا تجاريا في العصر المريني، فأصبحت قبلة تجار الأندلس والتجار المسيحيين، ومنهم تجار ايطاليون من جنوة وغيرها، وتحولت آسفي بفضل حركتها التجارية إلى مرجع رئيسي للتجار المسيحيين بالنسبة للمكاييل وعمليات صرف المسكوكات الذهبية و الفضية، وغَذَت موردا رئيسا لتغذية بيت مال الدولة من مداخيل ضرائب التجارة، من أعشار ومكوس. وخلال القرنين 15 و 16 أصبحت مدينة آسفي، من أكثر الموانئ المغربية استفادة من تجارة البرتغال، إذ أصبح بإمكان المدينة أن تُزود كل تجارة سواحل افريقيا بما تحتاجه من سلع، وتروج كل ما يُجلب إليها عن طريق البرتغال من الهند.

وعلى الساحل الأطلنتيكي كان ميناء آسفي من الموانئ التي يستخدمها الإنجليز للتبادل التجاري مع المغرب، حتى صار ميناء آسفي متخصصا في استيراد المدافع والبنادق والبارود والرصاص والقنابل. ومن صادرات ميناء آسفي إلى انجلترا، السكر والذهب والجلود والثمر والشمع واللوز وريش النعام. كما تَعَرّف عليها التجار الإنجليز قديما إلى أن صاروا اختصاصيين في شؤونها، حيث ظهر التأثير العمراني والتجاري بالمدينة، خصوصا عندما أقام الإنجليز شرق قصر البحر مركزا تجاريا انجليزيا مبنيا بالحجارة والخشب والقرميط على الطريقة الإنجليزية في ساحة مولاي يوسف حاليا، هذه البناية الأثرية تم تدميرها في بداية الثمانينات من القرن العشرين. و بعد أن تحررت آسفي من سيطرة البرتغال وآلت شواطئها إلى الشرفاء السعديين، أصبح ميناء آسفي ميناء رئيسيا للصادرات والواردات، كما كانت السفن الأوربية تحمل إلى آسفي الثياب والملف والذخائر، وحتى الكمانات لعازفي الجوق السعدي، وكتاب التوراة لليهود والساعات والعطور. وقبل التوجه إلى

العاصمة السياسية مراكش، كان المبعوثون البريطانيون كباقي السفراء الأجانب ينزلون بآسفي. وهكذا أصبحت آسفي ميناء دبلوماسيا للدولة السعدية.

وهنا لابد من الإشارة إلى المحطة البارزة التي ظهرت فيها دبلوماسية السكر على حد تعبير المؤرخين الأوربيين، حيث كان السكر القادم من شيشاوة في مقدمة المواد التي تُسوقها المدينة لإنجلترا، لأن المملكة لم تكن تقبل في مطبخها، حسب ما يقوله "هنري روبيرتس"، إلا السكر المغربي، علاوة عن أن آسفي كانت مُنطلقا لملح البارود المغربي، الذي لم يكن يوازيه أي ملح في العالم، والذي كان الدفاع الحربي الإنجليزي يعتمده، إضافة إلى كون المدينة كانت تزود أوربا بأجود الصقور المغربية، التي ساهمت في تطوير هواية القنص بالصقر، دون أن ننسى تصدير الشمع، حيث كان المستهلكون يُقْبلون عليه لقوة نوره وصفائه، وللرائحة التي يستنشقونها عند احتراقه، وكأنه مُزج بمادة العطر.

وفي سنة 1577 م قام الرحالة الكبير "فرانسيس درييك" Francis Drake بأول جولة له حول العالم، فتوقف بآسفي بأسطول متكون من خمس سفن، وأزيد من مئة وخمسين شخصا. وفي منتصف القرن 17 ، أصبحت آسفي أهم الموانئ المغربية التي تضم بيت مال المسلمين لتقديم أجور العساكر، كما كان التجار يحلون بها عند قدومهم إلى المغرب. و قد ارتبط بهذه المرسى نشاط جمركي كبير اشتهر ب " الديوانة"، ويسميها أحد الأوربيين " دار النصارى"، وهي بحسب وصفه، تتخذ شكل فندق كبير، وكل دولة لها علاقات تجارية مع ميناء آسفي، تمتلك به محلا، فيه يسكن ويعيش ممثلوها من الفرنسيين والإنجليز والهولنديين و غيرهم، وكذا المغامرين النشطاء في ميدان التجارة.

وحتى عشية الحماية الفرنسية كانت السفن تقصد مرسى آسفي، من موانئ كبيرة معروفة بأوربا و العالم، بقوة حركتها التجارية واتساع علاقاتها ومعاملاتها التجارية، وبحكم نشاطها التجاري الواسع مع الخارج، فإنها كانت مستقرا لعدد من الشركات الملاحية.

ــ آسفي تنبت الصلحاء كما تنبت الربيع

منذ أقدم العصور، وقبل دخول الإسلام، اعتبرت آسفي ضمن المدن المقدسة المعروفة في العالم القديم، فبشمال المدينة، توقف الرحالة المغامر "حانون القرطاجي"، في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، وبنى معبدا ضخما ل"بوصيدون" سيد البحر والأنهار والعواصف، وترك لنا نصا منقوشا على لوحة من البرونز يروي فيه رحلته بالتفصيل، ولم يصلنا منها إلا ترجمتها اليونانية

التي قام بها شيخ المؤرخين هيردوس. هذا التقرير يشير إلى منطقة آسفي في الفقرة الثالثة (ثم اتجهنا إلى الغرب وأدركنا مكانا يعرف بصوليوس كاب صوليس (..) بعدما أقمنا هناك معبدا للإله بوصيدون، سافرنا في البحر مدة نصف يوم فوصلنا إلى بحيرة قريبة من البحر يغطيها قصب كثير ومرتفع ترعى فيه الفيلة وعدد كبير من الحيوانات الأخرى..).

ولعل أهم حَدث عرفته المدينة، هو دخول الإسلام لآسفي على يد الصحابي القائد عقبة بن نافع الفهري عام 62 هجرية / 681 ميلادية، حيث وقف على شاطئ بحرها المحيط ودعا بدعائه الشهير (اللهم رب محمد، لولا أني لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم في أقصى حدود الدنيا (..) اللهم إني لم أخرج بطرا ولا شبرا وإنك لتعلم أنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيئا". وقد ترك عقبة بن نافع صاحبه شاكر لينشر الإسلام بالمنطقة، وتحول مقامه إلى رباط يعمره الصالحون، حتى قيل أنه أول وأقدم مسجد بالمغرب. وقد ترك لنا المؤرخ أحمد بن الخطيب القسنطيني (بن قنفذ) وصفا لهذا الرباط الذي يعقد فيه الزهاد والعباد من مختلف نواحي المغرب مؤتمرهم السنوي فقال " ولقد حضرت مع جملة من هذه الطوائف مواطن عدة، منها زمان اجتماع فقراء المغرب الأقصى على ساحل البحر المحيط، جوف إقليم دكالة بين بلد آسفي وبلد تيطنفطر، وكان الاجتماع في شهر ربيع الأولى المبارك الأسعد سنة تسع وستين وسبعمائة (1367 م) وحضر من لا يحصى عدد من الفضلاء، ولقيت هناك من أخبارهم وعلمائهم وصلحائهم ما شردت به عيني بسبب كثرتهم).

ويصف بن قنقذ آسفي قائلا (إن أرضها تُنبت الصلحاء كما تنبت الربيع".

ـــ قالوا عن آسفي..

خلال رحلته إلى المغرب في القرن الثامن للهجرة الرابع عشر الميلادي، قال الأديب والوزير لسان الدين بن الخطيب عن آسفي " لطف حفي وجناب خفي ووعد وفي ودين ظاهره مالكي وباطنه حنفي، الدماثة والجمال والجلال والصبر والاحتمال والزهد والمال، قليلة الأحزان صابرة على الاختزان وافية المكيال والميزان، رافعة اللواء بصحة الهواء، بلد موصوف برفيع ثياب الصوف، وبه تربة الشيخ أبي محمد صالح، وهو خاتمة المراحل لمسورات ذلك الساحل). ويصف القاضي الأندلسي مطرف بن غميرة المخزومي آسفي بكونها " أخصب الأرجاء وأقبلها للغرباء ". وقال

عنها ناظر أحباسها الفقيه المؤرخ أحمد الصبيحي السلاوي " أهل آسفي أهل دين متين، ودماثة أخلاق يألفون ".

وزار آسفي الطبيب الإنجليزي "ارثر ليرد" سنة 1872 م، أواخر عهد السلطان محمد بن عبد الرحمان، وقال فيها (مدينة عريقة في القدم، وهي عاصمة عبدة، ويحيط بها سور عال، كما تقع على هضبتين، ولا تزال بها آثار قصور ومعاقل البرتغال، ويبلغ عدد سكانها 8000 نسمة (..) من بينهم عدد مهم من اليهود)، وكتب عن مرسى آسفي قائلا (تقع آسفي على ساحل بحر شديد الهيجان، ومن المسلي مشاهدة المهارة والجرأة التي يحوط بها البحارة في قواربهم المحملة بالحبوب الأمواج الخطيرة إلى البواخر التي تنتظر بعيدا في عرض البحر، وتوجد بالقرب من الساحل صخرة تحيط بها المياه بينما يكون المد عاليا، يقف عليها رجل مغربي يراقب سير الأمواج حتى إذا حل الوقت الذي يصبح فيه من الممكن أن تعبر المركب أعطاها إشارة بذلك)، وعن جمال حدائق آسفي ومظاهرها الطبيعية الخلابة نورد قوله (إن خصوبة وجمال الحدائق التي يمتلكها الأوربيون في مدينة آسفي، وعلى رأسها حديقة مستر مردوخ، لأقوى دليل على مدى ما يمكن أن يتحقق من نجاح زراعي في هذه البلاد، ففي كل مكان يوجد فيه ماء تلبس الأرض أرديتها الخضراء..).

أما وصفه لقصر السلطان بآسفي فينم عن حنين إلى هذا القصر الذي كانت تعيش فيه سيدة انجليزية من أصل ايرلندي قدمت إلى المغرب في عهد محمد بن عبد الله وكانت جميلة المحيا، وأصبحت مغربية واعتنقت الإسلام (بشرق قصر السلطان على المدينة وبه قاعات ذات سقوف عالية مزخرفة بسخاء وقد بني أهم جزء فيه بالحجر، وتوجد فوق سطحه مدافع بريطانية الصنع عديمة الجدوى (..) ويوجد بالقصر جناح به مجموعة من الغرف كانت تقيم فيه في الماضي سلطانة من السلالة الإنجليزية..)، وعن اليهود القاطنين بآسفي والذين لا يسكنون ملاحا خاصا بهم قال الكاتب (لما كانت آسفي إحدى المدن العتيقة بالمغرب فإن الناس (اليهود) يحجون إليها، ذلك أنها تشتمل على كثير من الدور المقدسة يشرف عليها رهبان كسولون يعيشون على إحسان أتباعهم، ومن بينها دار تتمتع باحترام خاص تدعى دار الإخوة السبعة اولاد بن زميرو، وقد ماتوا في يوم واحد ودفنوا بعضهم إلى جانب بعض، ويزور اليهود قبورهم المقدسة..).

أما الكاتبة "فرنسيس مكنب" التي زارت آسفي في مطلع 1901 م، فقد قالت في آسفي قولة يمكن الاعتزاز بها (كانت آسفي في القرن ما قبل الماضي 19 مركزا تجاريا مهما تشرف عليه شركة دنمركية، وكان البرتغاليون من قبل يشجعون التجارة فيها وبلغت شهرتها في القرن 17 درجة

عظيمة صدر معها الأمر إلى كل سفينة بريطانية تزور المغرب أن تبدأ بزيارة آسفي). و حلّ بالمدينة الرحالة الفرنسي "أوبان أوديسكوس أوجين" سنة 1902م، حيث جمع كتاباته تحت عنوان " مغرب اليوم" سنة 1904م، و قام بترجمة نصوصها الدكتور محمد حجي تحت عنوان " آسفي وعبدة في مطلع القرن العشرين من خلال كتاب أوبان " (وصل أوبان إلى آسفي فشاهد الشاطئ المستدير مع آثار مركب برتغالي قديم على الرأس المشرف من جهة الشمال والمدينة المتراكمة فوق نتوء صخر ينحدر بسرعة نحو البحر والقصبة المرتفعة في جانب النجد، ومن داخل القصبة يبصر عند قدميه شلالا ضيقا من الدور البيضاء المنبسطة السطوح الشديدة الانحدار بين سورين متوازيين محصنين ببروج مسننة تنبثق وسطها كتلة الصومعة المربعة الفريدة، وإلى اليمين واد عميق يضم قبابا وأكواخا مبعثرة (..) وإلى اليسار ربض الشيخ أبي محمد صالح مقر مستودعات التجار، أُخذ المؤلف بهذا المنظر العجيب فحكم لآسفي بأنها أجمل مدينة شاطئية بالمغرب).

وتحدث الكاتب الإنجليزي "سكون أوكنور" عن آسفي وهي تحت الحماية الفرنسية قائلا (وبالرغم من أن البرتغاليين لم يحتلوها أكثر من جيل فإن طابعهم أصبح عالقا بها، ويتمثل ذلك في أسوارها الضخمة وفن السلالم التي نحتوها من الصخر، وفي القلعة التي تبدو شديدة المناعة، ويوجد داخلها قصر مغربي صغير، وبالقرب منه مسجد مولاي زيدان السعدي، لكن هذا المسجد لا يتمتع بأكثر من الجمال الخارجي، أما داخله فقد تهدم ولذلك لم تعد تقام به الصلاة). وزار المدينة في مطلع القرن العشرين، في عهد المولى عبد العزيز، الرحالة والديبلوماسي الفرنسي "ايتيان ريشت"، حيث وصفها بالقول (وصلنا إلى آسفي والشمس تغرب، هذه المدينة محصورة في نتوء صخري ينحدر نحو البحر، وأول من يظهر منها قصبتها (..) وعلى الشاطئ قلعة منشأها برتغالي وتكمل بتناسق التحصينات، وفي وسط المدينة البيضاء برز هيكل مربع لصومعة، وإلى اليمين مسيل واد عميق (..) وعلى جانب ضريح ولي المدينة شيدت المخازن وبناية الزاوية).

آسفي ليست بقعة جغرافية محدودة بمحيط معين، بل هي التاريخ والحضارة والجمال، هي الإرث الإنساني، أقدم مدن المغرب المأهولة، تبارى في وصفها الشعراء منذ أن كان الشعر والشعراء، أحبوها وكتبوا عنها، ووصفوها بأشعارهم، زارها شعراء كثر لم يستطيعوا إخفاء عشقهم وولعهم بها. ويكفينا فخرا ما قاله الإمام أبو حفص عمر بن عبد الله الفاسي:

لله دركم بني آسفي   فتريلكم يشفى من الأسف
أخلاقكم كالعطر في نفس   ووجوهكم كالبدر في شرف

أو قول محمد بن الطاهر الهواري:

أهلا بأهل آسفي   من كل خل منصف

أكرم بهم من معشر   حازوا الجمال اليوسفي

سادوا الأنام كرما   فمثلهم فلتعرف

أما الوزير الشاعر محمد بن ادريس العمراوي فقد قال عن أهلها:

إن لم تعاشر أناسا خيموا آسفي   فقل على عمر قد ضاع وا آسفي

ـــ آسفي حيّرت الأركيولوجيين والمؤرخين

وحتى الكُتّاب كان لهم نصيب وافر في التعريف بآسفي، حيث جاء في "رواية خبز وحشيش وسمك" للأستاذ عبد الرحيم لحبيبي قوله (كان البحر بدءا، وكانت آسفي، استوت على الجرف العالي واستوى الفلك على الجودي، صاعدة من قلب الطوفان جوهرة ومنارة وحضنا للتائهين والحيارى وعابري المحيط والمؤلفة قلوبهم على الخير والصلاح والواصلين من أهل الله (..) من قمة سيدي بوزيد تبدو المدينة في عناق حميمي خالد مع البحر، فكأنها تخرج من بين ذراعيه، أو هو ينسل من بين أحضانها، أو كأنهما في اللحظات الأخيرة للانفصال عن بعضهما أو هما في اللحظة الأولى للعناق والالتحام والضم). وقال الأستاذ محمد القاضي عن آسفي (ارتبطت بالبحر ارتباطا وثيقا منذ القدم إلى اليوم، هذه المدينة الضاربة بمهمازها في جلد التاريخ. إنها العروس البيضاء المستلقية على ضفاف المحيط الأطلسي، ما زالت تستحم في هدوء تحت أشعة الشمس الذهبية، هذا البحر بأمواجه الزبدية يداعبها في حركة مد وجزر سرمدية (..) مدينة حيّرت الأركيولوجيين والمؤرخين بسرها التاريخي والحضاري الدفين. وفي كل مرة تطل من تحت أنقاض زمنها القديم بصمات ومعالم لحضارات عريقة كالفينيقية والقرطاجية (..) وربما الفرعونية. انصهرت فيها أجناس بربرية وإفريقية وعربية وأوربية، وتعايشت فيها الديانات الثلاث: اليهودية والنصرانية والإسلامية).

ـــ ما يشبه الختم:

حاولت في هذا المقال الهروب من حاضر المدينة إلى ماضيها الجميل، في نوع من النوستالجيا والحنين للماضي، وأعلم علم اليقين أن الناس تهرب من الماضي إلى المستقبل، وليس العكس، قد لا يتفق معي البعض، ويرى أني قد بالغت في حب ماضي آسفي، وفي المقابل يتفق معي الكثيرون أن

آسفي اليوم، بحاجة لبعث جديد لتكتمل صورتها البهية، حضارة وتاريخا وتنمية. وعلى الرغم من واقع التهميش المفروض على المدينة و مراسيم الحداد اليومية، تمنحك آسفي أملا أنها عائدة كما كانت وأجمل، تغريك بجمال الأيام القادمة لتُنسيك قَباحة اللّحظة. وإن كنت قد سجلت في هذه المقالة بعضا من تاريخ ومكانة هذه المدينة القديمة عبر التاريخ، فقد غابت عني الكثير من الحقائق التي أخفتها دفات المصادر أو طمست معالمها حوادث الأيام.







الحرْكات السُلطانية بمغرب القرن التاسع عشر
إجراءات تنظيمـها وظروف انطلاقها

محمد العزوزي
ماستر المغرب والمحيط الدولي
في التاريخ ـ كلية سايس- فاس

كثيرة هي الدراسات التي تناولت ضمن ثنايا فصولها ظاهرة الحرْكة بالمغرب خصوص خلال الفترة المعاصرة، فأسهبت الحديث عن تنقلها والمهام المنوطة بها لاسيما في علاقتها بقبائل المغرب خلال القرن التاسع عشر، كما اختلفت وجهات نظر الباحثين حول مهامها ووظائفها؛ بين من يرى في الحرْكة وسيلة لممارسة السلطة بشكل مطلق، وبين من يرى فيها أداة سهلت على المخزن المغربي إمكانية استنزاف خيرات القبائل دون مراعاة لظروفها المعيشية.

لكن الملاحظ من خلال جل هذه الدراسات، أنها أغفلت جانبا مهاما -في اعتقادنا- يتعلق بالظروف والإجراءات الكثيرة التي كانت تسبق انطلاق حرْكة السلطان أو جولاته في ربوع البلاد، ذلك أن ظاهرة الحرْكة في تاريخ المغرب المعاصر ربما لا يمكن أن تفهم معالمها بوضح بمعزل

عن الحديث عن هذه الظروف و الإجراءات التي كانت تسبق انطلاقها بشهور عديدة، حيث كان السلطان يعد العدّة مبكرا لتحركاته، وإن ظلت وجهته سرا مكنونا إلى آخر لحظة.[89]

ذلك ان التنظيم المسْبق للحرْكة، يعبّر عن حزم المخزن المركزي وذكائه في توفير مختلف الشروط التي من الممكن أن يحتاج إليها "المسافر" في طريق تتجشمه مجموعة من الصعاب وفي رحلة قد تدوم في ضعنها وإقامتها شهوراً طوالا قبل الوصول إلى وجهتها المحددة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار "الجمهور الغفير" من المشاركين في الحرْكة، أدركنا أن انطلاقها لا يمكن أن يتم بالسهولة التي من الممكن أن يتصورها ذهن الإنسان في الفترة الحديثة، على اعتبار أن ظروف الزمان والمكان تختلف جملة وتفصيلا بين الأمس و اليوم.

فانطلاقا من هذا الاستهلال، يحق لنا التساؤل عن الإجراءات و الظروف المرتبطة بالتأهب للحرْكة السلطانية، ليكن الجواب عنها عبر مراحل اربعة نحاول من خلاها قدر المستطاع اماطة اللثام عن معظم معالم التحضير والاستعداد للانطلاق الحرْكة بمغرب القرن التاسع عشر.

1) قبل انطلاق الحرْكة: إجراءات مكثفة يباشر عملها المخزن

كان المخزن يسخر خلال عزمه على تنظيم حرْكة، طاقات بشرية ومادية هائلة، تعبر عن حزمه الشديد في توفير الظروف الملائمة لإنجاح تنقله من مجال إلى آخر وفي ظرف زمني قد يستغرق مسيرة وقت طويل. و يورد عبد الرحمان بن زيدان في هذا الصدد وثيقة هامة تشتمل على اثنا عشر شرطا من الشروط الضرورية التي كان السلطان مولاي الحسن الأول (1873-1894) يتخذها قبل عدة شهور من تنظيم حرْكاته.[90]

ومن خلال استقراء تلك الوثيقة، يمكن أن نسجّل - على العموم- ملاحظتين أساسيتين عن الشروط المتخذة للتأهب للحرْكة هي :

- ترتيب خزانات الكتب وتنظيمها في دار المخزن، من الخطوات الأولى التي تدّل على رغبة السلطان للشروع في الحرْكة.

- إصدار الأوامر السُلطانية لمعظم رجال المخزن بتوفير كل ما تحتاجه الحرْكة خلال مراحل ضعنها وإقامتها، من مؤونة وحُراك و أغطية وغيرها.

---

89 - الطيب بياض، **المخزن والضريبة والاستعمار ضريبة الترتيب 1880-1915**، افريقيا الشرق، 2011 ، ص:115

90 - عبد الرحمان ابن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، المطبعة الملكية بالرباط، 1381هـ /1961م، ج1، صص: 189-190.

فتلك الإجراءات العملية التي كان مولاي الحسن الأول يصدرها لبعض أعوانه، توضح إلى حد بعيد التكاليف الكبيرة التي كانت تتطلبها عملية تنظيم الحرْكة من المخزن، لضمان الظروف الملائمة طوال مدة تنقلها، حيث كانت هذه التكاليف لا تقتصر على توفير الخيل والإبل كوسيلتين لحمل أثقال المخزن أو كوسيلة للتنقل، وإنما كان المخزن في حاجة كذلك إلى المؤونة للعناصر البشرية المرافقة للحرْكة و للبهائم. هذه المؤونة غالبا ما كانت القبائل التي تمرّ عليها الحرْكة مطالبة بأدائها، حيث يورد الفرنسي لويس أرنو أن المخزن كان " لا يفكر كثيرا في مؤونة وصيانة مجموعات الحرْكة، لأن القبيلة هي التي كانت تدفع المال الكافي لكل فرد/جندي طول مدة الجندية "[91].

وبالإضافة إلى عنصر المؤونة، كان المخزن يصدر أوامره، بنصب أفراك أو الفسطاط السلطاني، وما يحيط به من الأخبية (الخيام الصغيرة)، حيث كان ينصب خارج ضواحي البلد التي يكون مراد السلطان المرور عليها. ويعرّف ابن زيدان أفراك بكونه « عبارة عن فسطاط متسع الدائرة اتخذه الملوك والسلاطين بالمغرب الأقصى ليمثلوا به ضخامة وأبهة السلطان في الأسفار، يشتمل على فرق عديدة ويكون بابه دائما للقبلة ».[92]

كما يقرّبنا لويس أرنو من شكل الفسطاط بقوله: « كان الفراك يضم خيام السلطان المزينة في أعلاها بالكرات الذهبية والمحاطة بخيام الوزراء والكتاب والموسيقيين، وكانت خيام المساخرين تشكل حول هذه النقطة الوسطى مربعا مغلقا صعب الاختراق، بداخله خيول السلطان وبغال الموكب والمدافع، وليس بعيدا عن هذا المكان يتجمع الجنود داخل خيامهم الجلدية حول خيمة العلاف أو وزير الحرب، كما يوجد طابور عسكر العبيد أقرب ما يكون إلى المعسكر السلطاني ».[93]

و كثيرا ما كان الشُروع في نصب أفراك يسبق موعد انطلاق الحرْكة بمدّة مديدة أحيانا، حيث لاحظ احد الأطباء الفرنسيين[94] الذي رافق حرْكة السلطان الحسن الأول إلى تافيلالت

---

[91] - لويس أرنو، **زمن لمحلات السُلطانية الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860-1912م**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، افريقيا الشرق، 2002م، ص:17.

[92] - مصطفى الشابي، **الجيش المغربي في القرن التاسع عشر 1830-1912م**، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط، 1 ج،2، 2008م، ص:242.

[93]- لويس أرنو، **مرجع سابق**، صص:17-18.

[94] - يتعلق الأمر بالطبيب **"فرناند ليناريس"**، الذي رافق البعثة العسكرية الفرنسية للمغرب التي حطّت الرحال خلال مرحلتها الأولى بمدينة وجدة سنة 1878م، والذي عاش بالمغرب حوالي 15 سنة، كان خلال بعض فتراتها مقربا من مولاي الحسن الأول.

سنة 1893م، أن الاستعدادات الأولية لهذه الرحلة رافقها نصب أفراك السلطان في 24 أبريل 1893م خارج مدينة فاس (التي يوجد بها السلطان)، « بجانب الطريق الذاهب إلى صفرو في اتجاه الجنوب الشرقي »، لكنه لاحظ أيضا « أنه مرّ شهر ماي دون أن يتم انطلاق السفر، تلته حوالي العاشر من شهر يونيو، يبدأ الحديث عنه (السفر) مجددا »[95]. حيث انطلقت الحرْكة في مرحلتها الأولى من فاس إلى عين السمار يوم الخميس 29 يونيو 1893م؛ وبالتالي تكون المدّة الزمنية الفاصلة بين نصب أفراك وانطلاق حرْكة تافيلالت هي: شهران و خمسة أيام على وجه التقريب.

فهل هذه المدّة الزمنية تُعزى إلى الوقت و المجهود الكبير الذي قد تستغرقه عملية نصب الفسطاط السلطاني ؟ أم أن المخزن كان يهيئ لأشياء أخرى ضرورية بدورها في عملية تنقل الحرْكة ؟

قد تكون هذه الاحتمالات واردة، أو تقترب من الجواب، على اعتبار أن عملية نصب أفراك وكما يلاحظ من بعض الدراسات التاريخية كانت تتطلب من المخزن توفير العديد من المواد والأدوات التي بدونها يستحيل لربما ضمان مستقر آمن للسلطان ولحاشيته. ومن بين هذه الأدوات التي كان "الفرايكية" (المختصين في نصب أفراك) في حاجة إليها نذكر -انطلاقا من نموذج معين- ما يلي :

- 16 وتّداً من الحجم الكبير، يبلغ طول كل واحد منهم مترا واحد، وعرض كل ضلع من أضلاعه الأربع خمسة سنتيمترات.
- 16 وتّداً دون الحجم السابق.
- 540 وتدْ عادي من النوع الذي يعرف بـــــ "أبري".
- 20.000 وتدا خشبيا.[96]

كما كانت تستعمل حبال ضخمة لنصب الفسطاط السلطاني، التي غالباً ما كانت تصنع في مدينة العرائش، والتي لا يقل وزنها عن 80 كيلو« ولا يمكن أن يحمل على البغال أكثر من اثنين للواحدة »، في حين كانت القبة السلطانية لأفراك تتطلب ما لا يقل عن 11 بغلا لحملها [97].

---

[95] ـ محمد حمام، " قراءة في كتاب السفر إلى تافيلالت معيّة صاحب الجلالة السلطان مولاي الحسن سنة 1893 لمؤلفه الدكتور فرناند ليناريس "، **ضمن: أعمال الدورة السابعة لجامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، (الشطر الأول: السلطان مولاي الحسن الأول) ، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، دجنبر 1997، ص:147.

[96] - مصطفى الشابي، **الجيش المغربي في القرن التاسع عشر** ، م، س، ج،2، ص:181

[97] - نفسه، ص: 182.

إن هذه المعطيات الهامة وغيرها التي كانت تتطلبها عملية نصب أفراك، لعل من جملة ما تحيل عليه هو كثرة المواد والأدوات المستعملة في تجهيزه، والتي لا يمكن توفيرها -بالنظر إلى الوسائل التقليدية المستعملة آنذاك- إلا بعد مضي وقت طويل قد يتطلب من المخزن مزيدا من الانتظار من أجل الحصول عليها. فعملية خياطة الخزائن والأخبية مثلا، - التي كانت تحيط بالفسطاط السلطاني ويتخذها بعض المرافقين للحرْكة مستقرا لهم- كانت تتطلب من صانعيها وقتا طويلا لخياطتها، وكان المخزن واعيا بهذا الأمر، لكن شريطة أن يكون العمل متقناً « وتخاط خياطة متقنة [...] لتجيء في غاية الصحة والإتقان »،(98) لهذا السبب كان المخزن يتوصل بهذه المواد عبر دفعات إلى أن يكتمل العدد الذي يرغب في الحصول عليه.

من هنا يمكن تفسير، الفترة الفاصلة (أكثر من شهرين) بين نصب أفراك السلطان المولى الحسن الأول وبين عملية الشروع في حرْكاته إلى تافيلالت سنة 1893م، التي كانت من جملة ما أثارت انتباه الطبيب الفرنسي "فرناند ليناريس" خلال مرافقته لهذه الرحلة.

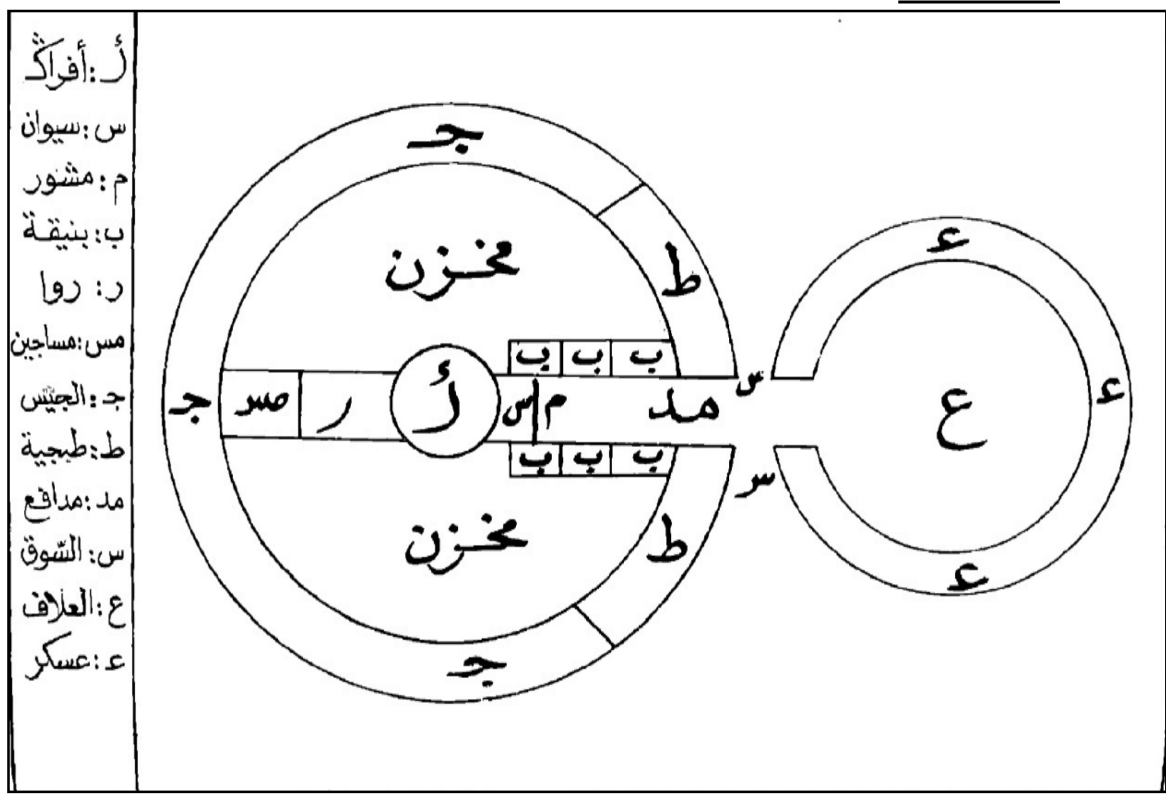
ويمكن أن نفسّر كذلك ليس فقط بالاستناد إلى عملية نصب أفراك، وإنما بتجهيز مختلف وسائل الحرْكة بصفة عامة، الخمسة أشهر ونصف تقريبا التي تطلبتها عملية التحضير لحرْكة السلطان المذكور إلى مدينتي تطوان وطنجة سنة 1889م، أو الفترة الزمنية التي تطلبتها عملية التهييئ للحملة العسكرية التي استهدفت قبيلة الأعشاش بالشاوية في الفترة العزيزية.

إن ما يمكن أن نستخلصه من هذه المعطيات، هو طول الوقت المستغرق في عملية التحضير للحرْكة، التي كان الفسطاط السلطاني من بين الإجراءات التي تفرض على المخزن أخذ الوقت الكافي لتجهيزه، ناهيك عن الإجراءات الأخرى التي يمكن اعتبارها بالـــمكّثّفة لما تتطلبه من توفير بعض الأشياء الضرورية مثل: البغال للتنقل والتلاليس، والمؤونة وغيرها لضمان السيْر العادي لتنقل الحرْكة حتى تصل إلى الوجهة المزمع الوصول إليها.

بالإضافة إلى هذه الإجراءات المذكورة، كان المخزن يصدر أوامره إلى بعض أعوانه قبل انطلاق الحرْكة لتفقد معظم المراحل التي ستقطعها في طريقها للوصول إلى المجال الذي عزمت الانتقال إليه، وكان يتكلّف بهذا الدور موظف مخزني عرف: بالميقاتي .

98- خديجة بن بوسلهام، **المخزن والمجتمع في النصف الأول من القرن التاسع عشر عهد مولاي عبد الرحمان بن هشام 1822-1859م**، المندوبية السامية لقدماء المقاومين و أعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2013م، ص:173.

الشكل رقم 1 : رسم توضيحي لشكل الفسطاط السلطاني والمرافق المحطة به.



✓ **المصدر:** ثريا برادة، **الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص: 333. 4

2) دور الـــميقـــاتيين في رسم وتـــفـــقد وضعية مسالك الحرْكة

كان بعض مهندسي الدولة وميقاتيها[99] يقومون قبل الشروع في انطلاق الحرْكة بالتوّجه لمعاينة الطريق الصالحة التي سوف تمر منها حرْكة السلطان ويصورونها سهلا وجبلا، ويقسمون المسافة الفاصلة بين كل مرحلة، ويعيّنون الميادين الصالحة للمقام الكفيلة بالاستراحة، ويُبيّنون المواضع التي فيها من الماء ما يكفي ويقدرون المسافة التي تفصل بين محل التخييم ومكان وجود الماء[100].

99- الميقاتي: من موظفي القصر السلطاني المكلفين بضبط أوقات الصلاة وتقديم حصة وقتها إلى السلطان، كما كان الميقاتي يخرج عندما يزمع السلطان على السفر، لضبط ساعات السير التي ستقطعها الحركة خلال كل مرحلة من مراحل الطريق، وضبط مواضع الماء الكافي للمحلة التي يتم المرور عليها، ثم في نهاية استقصائه يقدم للحضرة السلطانية تقييدا بالبيانات التي توصل إليها. وذلك ليكون السلطان « على بصيرة من عدد الساعات والدقائق التي يقطع في مدة السفر من أولها إلى آخرها ».

100 - عبد الرحمان ابن زيدان، **العز والصولة** ، م، س، ، ج1، صص:191-192.

ومن الملاحظ، أن المخزن كان يتبع بدّقة المراحل التي كان يقطعها "الميقاتي" لرسم مراحل الطريق التي سيكون مرور الحرْكة عليها، بل إن هذا "الميقاتي" كان يعمل خلال الشروع في مهمته بتقدّم تقرير شامل للسلطان يتضمن كل المراحل التي قطعها لضبط مراحل الطريق ومسالكها، ليرى موقف السلطان من تلك المعلومات التي يعرضها بدوره على اعوانه العارفين بجغرافية المجال للتأكد من صحتها.

بل أكثر من ذلك، تفيدنا بعض الوثائق أن المخزن كان يُصْدر أوامره لقواد القبائل التي يندرج مجالها ضمن الطريق السلطاني لمساعدة وتقديم العون إلى الميقاتيين قصد التمكن من رسم مختلف مراحل مرور الحرْكة بدّقة، وتعيّين أماكن التخييم ومكان وجود الماء . ولعل من بين الرسائل التي تعبّر عن هذه المسألة رسالة الحاجب أحمد بن موسى لقواد قبائل زعير المؤرخة بــ: 3 ذي القعدة عام 1304هــ/ 1887م.

« أحبائنا الأرضين قواد المزارْعة والكُفْيَان،[...] وبعد، فحملته (كذا) الميقاتي والفرايكي، وقائد مئة، ومن معهم من أصحاب سيدنا، عيّنهم مولانا أيده الله لاختبار الطريق ببلاد زعير، قد شُّوفهُوا بها، فمن وصلوه منكم فليعيّن لهم من إخوانه من يرافقهم، ويعرّفهم بالطريق التي تعلق بها الغرض الشريف، ويدّلهم على مياهها وغير ذلك، واستوصوا بهم خيرا، وبروا بهم، ولا بد، وعلى المحبة والسلام »[(101)].

و لم يكن دور الــميقاتي ينتهي بتقديمه لرسم مفصّل للمسالك التي ستمر بها الحرْكة، وإنما كان عليه القيام بمهمة أخرى عند انطلاقها؛ وهي ضبط سير الحرْكة بتوقيتها، ومناطق تخييمها.[(102)]

من هنا يمكن القول، أن المخزن كان على بيّنة كبيرة – انطلاقا من المعطيات التي كان يدلي بها الميقاتي- بمختلف المراحل التي ستقطعها الحرْكة للوصول إلى وجهتها المحدّدة، وما زاد من أهمية هذه الإجراءات المخزنية هو أن السلطان كان يعمل عند الشروع في الحرْكة، على مراسلة رجال

---

[101]- نفسه، صص:266-267.

102 - محمد أعفيف، " الحرْكات الحسنية من خلال مؤلفات ابن زيدان" **ضمن: مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط، العدد 7، 1980م. ص:66.

المخزن المستقرين بالمجال المزمع التوجه إليه، وإخبارهم بمختلف الظروف و المراحل التي ستقطعها الحرْكة للوصول إليهم [103].

وبعد أن يتم توفير كل الشروط اللازمة للحرْكة، كان السلطان قبل يوم واحد على انطلاق حرْكاته، يُصدر أوامره إلى كل النخب المخزنية المقربة منه بقصد القدوم عليه في اليوم المخصص لهذا السفر من أجل توْديعه، ليشرع بعد ذلك بشكل رسمي في المراحل الأولى من رحلته. و يصور لنا ابن زيدان الاجواء والطقوس التي تتم فيها عملية توديع السلطان وشروعه بشكل رسمي في المراحل الاولى من رحلته بقوله :

« فإذا بزغت شمس اليوم المعيّن للسفر ورد الناس على القصر الأمامي وتخرج جميع الأثقال المولوية، [...] وبعد وداع الجلالة من بداخل القصر ومن بخارجه، [...] يخرج الأشراف والقضاة وأعيان العلماء وعامل البلد وسائر الموظفين والوجهاء ويصطفون بباب القصر إلى أن يمر الجناب العالي فإذا أخذ كل مركزه تأمر الجلالة بتقديم فرسها ثم تنهض على العرش وتمتطي صهوته وتخرج، [...] وتسير في أبهة وجلال والهتاف بالنصر والتمكين وبلوغ القصد من الرجال والنساء والأطفال متواصل حيثما مرت إلى أن يصل للمخيم حيث ضرب الفسطاط، ومن الأعيان من يرافق الجلالة للمبيت معها بالمخيم الأول، ومن الغد يعيد الوداع وينقلب »[104].

3) أثـــنــــاء الـــحـــرْكـــة :

من المفيد الإشارة أولا، إلى أن شروع السلاطين في تنظيم الحرْكات غالباً ما كان يتم ابتداء من فصل الربيع، وينتهي مع حلول فصل الخريف أو بعد مرور الأسابيع الأولى منه،[105] أما فصل الشتاء فيرى "فرناند ليناريس" أن السلطان الحسن الأول مثلا؛ كان يقيم خلاله في إحدى العواصم الثلاث منشغلا بحلّ المشاكل المتعلقة بالدول الأوربية فيما يتعلق بمسألة التجارة، وبسبب الحوادث التي كانت تقع على الحدود مع الجارة الجزائر.[106] لكن هذا لا يعني توقف الحرْكات

---

103 - انظر بهذا الشأن رسالة المولى الحسن الاول الى قائده بمدينة فاس إدريس السراج؛ عبد الرحمان ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط، 1، 1419هـ/2008م، ج،2، ص: 164.

104- عبد الرحمان ابن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، م.س، ج،1 ، ص:237.

105- مصطفى الشابي، **الجيش المغربي في القرن التاسع عشر** ، م، س، ج،2، صص:162.

106- محمد حمام، "قراءة في كتاب السفر إلى تافيلالت معيّة صاحب الجلالة السلطان"، م، س، صص:145-146.

عن القيام بوظائفها في فصل الشتاء، فكثيرا ما خاض السلطان المذكور حملات عسكرية خلال هذا الفصل[107].

أما فيما يتعلق بالنظام الأمني لانطلاق الحرْكة، فيبدو أن القبائل كانت تلعب دورا كبيرا في ضمانه، حيث يشير لويس أرنو أنه في العادة « عند عبور أراضي القبائل الثائرة تتكلف وحدات القبائل بأخذ القيادة من أجل إجلاء كل المخاطر على جوانب المحلة، لكن عندما يخاف من المفاجآت من الخلف خاصة من القبائل البربرية، تعطى الأوامر لهذه الوحدات (القبلية) بالرجوع إلى الخلف، وعندما تكون هناك حرب ما فإنهم يكونون دائما في الصفوف الأمامية »[108] . وفي أثناء سير الحرْكة، كان الموكب السلطاني ينطلق وفق ترتيب هندسي مضبوط [109] حيث يضيف لويس أرنو أن السلطان كان يتوسط أفراد حاشيته « تحت مضلّته والموسيقيين الذين يغنون خلال الثلاث ساعات من الرحلة، وكانت أسلحة السلطان في طريق سير الحرْكة قريبة منه، وخلفه يوجد الحاجب والوزراء والكتاب فوق البغال، والرماة بمدافعهم وأفواج باقي المسخرين مشكلين بذلك حزاما أمنيا للموكب »[110].

وعندما كانت تمر الحرْكة بمجموعة من القبائل، كان يتعيّن على المخزن القيام بجملة من الوظائف المتمثلة عادة في استخلاص الضرائب المتأخرة أو فض المنازعات التي قد تنشأ بين أفراد القبيلة، حيث يشير صاحب "الإتحاف" في هذا المقام بأنه إذا « كان للجناب السلطاني غرض في قبيلة من القبائل التي يكون المرور عليها أو معهم كلام في واجب ونحوه، فتتقدم إليها سرية من الجند والعسكر وبعض القبائل»[111]، في محلة للشروع في مباشرة الغرض الذي تقدمت المحلة من أجله.

وبالتالي فإن الحرْكة أثناء سيْرها كانت لا تكتفي فقط بقطع أدراج الطريق، وإنما كانت تقوم كذلك بمجموعة من الوظائف التي كانت تتطلب على ما يبدو لقاء مباشرا بين السلطان ومحكوميه، ومن هذا المنطلق لم تكن الحرْكة كما يرى الأستاذ محمد أعفيف « مجرد سفر عادي للسلطان أو حملة عسكرية، بل هي تعدت هذا وذلك، وأصبحت وسيلة لمعاينة أمور عديدة

107 - الشابي، **مرجع سابق**، صص:162.
108 - لويس أرنو، **زمن لمحلات السلطانية**، م، س، ص: 18.
109- انظر اسفله الشكل رقم 2: نظام سير الحرْكة السلطانية.
110- لويس ارنو، م، س، ص: 18.
111 - عبد الرحمان ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، م.س، ج،2، ص:163.

»[112]. وهذا الأمر المتعلق بممارسة السلطة خارج المجال المخصص لها نجده يتطابق أيضا مع ما أشار إليه صاحب "العز والصولة" بقوله: « شأن الجلالة السلطانية في الأشغال الإدارية والخصوصية في الحضْر، هو شأنه في السفر غالبا »[113].

هذا، وقد كان السلطان في طريقه، -فضلا عن إدارة أمور القبائل وقبض الواجبات المتأخرة- يحرص على زيارة العديد من الأضرحة القريبة من مجال مرور الحرْكة، وفي الغالب ما كانت هذه الزيارات تتم بعد صلاة الجمعة أو تتزامن معها، كما كان السلاطين يحرصون في حرْكاتهم وخلال المراحل التي سيقطعونها بالوقوف عند أهم الأماكن التي كان أسلافهم يمرون بها في حرْكاتهم قصد التبرك بها، و إحياء لذكرى أجدادهم، فقد فضل السلطان المولى الحسن - مثلا- في تلك الحرْكة التي قادته إلى تافيلالت بالتوقف « بتومليلت بدلا من بوأغرار إحياء لذكرى السلطان مولاي سليمان الذي كان توقف بها أثناء قدومه من فاس نحو تافيلالت »[114].

الشكل رقم 2: نظام سير الحرْكة السلطانية

المصدر: مصطفى الشابي، **الجيش المغربي في القرن التاسع عشر** ، م، س، ج،2، ص:198. (بتصرف)

112 - " الحرْكات الحسنية من خلال مؤلفات ابن زيدان "، م، س، ص:47

113 - عبد الرحمان ابن زيدان، **مصدر السابق** ، ص:238.

114 - محمد حمام،" قراءة في كتاب السفر إلى تافيلالت معيّة صاحب الجلالة السلطان"، م، س، ص:149.

4) وصول حركة السلطان للمجال الـــمـــقصود وطقوس استقبالها

نستفيد من كتاب "العز والصولة" لابن زيدان عدة إشارات، تفيد أنه عند اقتراب السلطان من المجال الذي عزم السفر إليه، و أصبح لا يفصل بين هذا المجال وبين الموكب السلطاني إلا مراحل قليلة « تصدر الأوامر العالية لعامل البلد ومن جرت العادة لإعلامهم بذلك، فينادى في عموم الأسواق لإشعار العامة والخاصة ليكون الجميع على أهبة »[115]، وفي نفس الوقت يخرج بعض أعيان البلد ووجهائها لملاقاة السلطان في مخيمه خارج البلد المزمع التوجه إليه، حيث يستقبلهم السلطان ويجري معهم محادثات من جملة ما تتناوله هو السؤال عن أحوالهم وأحوال بلدهم التجارية والاقتصادية، وفي أثناء ذلك « يفاض عليهم من الكرم والإحسان ما يطلق ألسنتهم بالثناء ويطمن أفئدتهم في صدق الولاء »، وبعد ذلك فمن هؤلاء الوفد من يقْفل راجعا إلى موطنه « ومنهم من يقيم في الضيافة السلطانية إلى اليوم المعين لدخول البلد، فإذا كانت صبيحة ذلك اليوم خرج الناس على اختلاف طبقاتهم زرافات ووحدانا لاقتبال ورود جلال السلطان ».[116]

وفي هذا الصدد نلمس من زيارة المولى الحسن الأول لتطوان سنة 1307هـــ/1889م آثار الاحتفالات الكبيرة التي أقامها أهل هذا البلد على شرف الزيارة السلطانية لبلدهم، كما نستشف العادات والتنظيمات التي كان يُستقبل بها السلاطين عند قدومهم على مجال معين. « وقضى أهالي تطوان الليلة التي سيدخل السلطان المدينة في صبيحتها أيقاظا، فرحا بزيارة السلطان واستعدادا للقاه،[...] (وفي صباح ذلك اليوم) خرجت تطوان بأسرها لاستقبال السلطان المحبوب، [...] وماج الناس بعضهم في بعض، ثم نظمت المواكب ورتبت الصفوف وقصد الجميع طريق السلطان، وقد تواردت الوفود من القبائل المحيطة بتطوان، ودقت الطبول، وارتفعت الأصوات بالأذكار والدعوات، وعلت البنادق والمكاحل فوق الكواهل، (وبعد استقبال السلطان) ولى الجميع وجهه شطر تطوان وقد صدحت الموسيقى السلطانية، [...] ثم تقاصفت رعود المدافع من كل برج فرحا بأمير المؤمنين، وتكهرب الجو، وغمرت الناس من الفرح موجات »[117].

وكان السلطان بعد أن يقيم بضعة أيام في البلد الذي حلّ برحابه، وبعد أن يصدّر رسائله لمختلف أقطار البلاد يبلغهم بأطوار السفر ومراحله وبحلوله بالمكان الذي عزم التوجه إليه، كان

---

115 - عبد الرحمان ابن زيدان، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، م. س، ج.1، ص:249.

116 - نفس المرجع والصفحة

117- حسناء محمد داود، **زيارة المولى الحسن الأول لتطوان فصلة من كتاب "تاريخ تطوان" للأستاذ محمد داود**، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، 1997م، ص:11.

يأمر عمال البلد الذي حلّ به وأعيانها بقصد التأهب لزيارة «المشاهير من صلحاء البلد»، حيث يخرج السلطان في موكبه الملوكي رفقة حاشيته « وكل ضريح حلّ به يضع في صندوق التبرعات دراهم معدودة، ويتفضّل سموه على الضعفاء والمعوزين الملتجئين لذلك الضريح بدفع رؤوس من البقر تفرق لحومها بينهم سعيا في تنشيطهم وإدخال السرور عليهم »(118).

وتجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أن السلاطين كانوا - على ما يبدو- خلال تنقلاتهم لا يكتفون فقط بالنظر في الأحوال المتعلقة بسياسة البلد الداخلية، وإنما أيضا قد يخصصون بعض أوقاتهم خلال زيارتهم لمنطقة ما لاستقبال بعض سفراء الدول الأجانب المقيمين بذلك البلد أو بغيره، قصد تسوية بعض الأمور المتعلقة بسياسة البلد الخارجية. فخلال زيارة المولى الحسن الأول إلى تطوان خصص هذا السلطان « أوقاتا لاستقبال وجوه الناس بصفة خاصة، وقد وفد على تطوان سفيرا ايطاليا وبلجيكا، فاستقبل السلطان كل واحد منهما استقبالا رسميا بساحة الفدان،[...] (حيث قدم هذين السفيرين) للسلطان أوراق اعتمادهما،[...] حتى إذا ما قابلاه في طنجة مع بقية السفراء الأجانب، كانا معروفين مقبولين كغيرهما من سفراء الدول »(119).

خلاصة:

يمكن القول انطلاقا مما سبق، أن إجراءات تنظيم الحرْكة كانت تتطلب من المخزن تسخير طاقات مادية وبشرية هائلة، لتحقيق رحلة أو سفر من مجال إلى آخر قد تتجشمه مجموعة من الصعاب. وأن هذه الرحلة (الحرْكة) كانت تحمل في طياها جملة من الأهداف التي سطّر المخزن خطوطها العريضة قبل شروعه في انطلاقها، وأن التنظيم الذي كانت تسير عليه حرْكات سلاطين مغرب القرن التاسع عشر، ليعبّر في الحقيقة الامر عن جهاز (حكومي) متنقل و متكامل الوظائف؛ يستخلص الضرائب ويفضّ النزاع، ويحافظ على استمرارية الفكر الزواياتي المتمثل في التبرك بالأضرحة القريبة من مناطق سير الحرْكة وزيارة الأولياء، وفي نفس الوقت تحقيق اللقاء المباشر مع الرعية، وما لهذا اللقاء من دور هام في « الحفاظ على الوشائج الهشة التي تشدّ حياة محلية ما تزال قوية الانسجام، إلى نظام مركزي عليه أن يجدد استقراره بكيفية مستمّرة عن طريق التنقل »(120).

118 - ابن زيدان، **مرجع سابق**، ج.1، ص:250 .
119 - حسناء محمد داود، **مرجع سابق**، ص:11.
120 - عبد الرحمان المودّن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الأدب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، 1995، ص: 308.



مجلة ليكسوس في التاريخ والعلوم الانسانية

مجلة علمية الكترونية محكمة



www.maroc-histoire.net
lixus.magazine@gmail.com

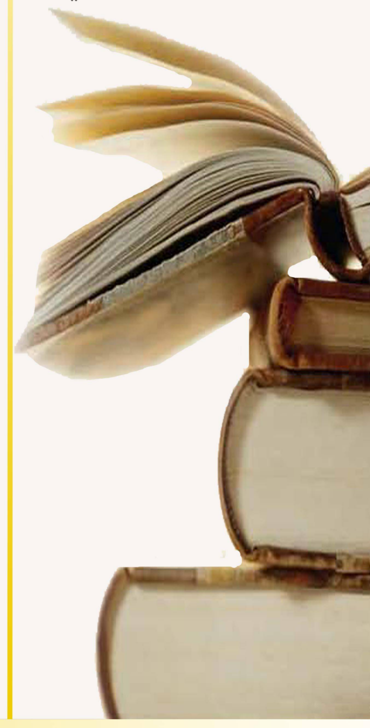
أسست بمبادرة من مجموعة الباحثين المغاربة

العدد الثاني - ماي ٢٠١٦:

المساهمون في هذا العدد:

- د.خالد بلعربي
- د.محمد بكار
- ذ.يونس كبزيز
- ذ.مشوشة سمير
- ذ.عمر عمالك
- ذ.سعيد عبيدي
- ذ.عبد اللّه النملي
- ذ.محمد العزوزي





محاور العدد الثاني:

- تاريخ التعليم بالمغرب المريني - قضايا التاريخ الراهن بالجزائر
- تاريخ المجتمع الرباطي - التجارة بين بلدان المغارب
- التاريخ البحري بالمغرب - مواقع تاريخية:مدن مكناس وأسفي
- الحركات السلطانية.

تنسيق واعداد:ذ.محمد أبيهي www.maroc-histoire.net lixus.magazine@gmail.com